بسم الله الرحمن الرحيم

رؤية القرآن للعالم ودلالتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان

أ.د. محمد الحسن بريمة إبراهيم/إمام/جامعة الجزيرة(2011م)

1- مقدمة

تأتلف في هذه الورقة خلاصات بحوث شتى لكاتبها، وهي بحوث منشورة ومشهورة بحمد الله.[1] والذي جعل ائتلافها ممكنا هو أنها جميعها تصدر عن مشكاة واحدة تمثل "القلب الصلب" لبرنامج البحث العلمي الذي يعمل عليه كاتب هذه الورقة. وقد أسميت هذا القلب الصلب "خطة الخلق العامة"، وهي حكمة ربانية جليلة عليها مدار الكون والوحي، وهي ثاوية في القرآن لمن يتدبر، وتمثل، في يقين الباحث، جوهر رؤية القرآن للعالم، لا سيما العالم الاجتماعي. ونسبة لجدة هذا الطرح المنهجي وخروجه عن مألوف البحث العلمي الإسلامي فقد ظللت أكرره بتفاصيله في كل بحث من بحوثي حتى يقف القارئ على كامل تصوراتي الكلية، ومنطلقاتي النظرية؛ وقد فعلت ذلك في هذا البحث أيضا. "رؤية العالم" مفهوم متداول في فلسفة العلوم والفلسفة، يُعنى بنوع محدد من الأسئلة الكلية والنهائية، تمثل الإجابة عليها المنظار المعرفي الذي من خلاله يرى المحدّق فيه العالم من حوله، وبه يستطيع أن يرى بوضوح المكونات الأساسية لهذا العالم، والعلاقات والنِسب بين هذه المكونات. سوف نحاول الاستفادة من هذا المفهوم في استنباط رؤية

[1] أنظر البحوث الآتية للمؤلف:
- الظاهرة الاجتماعية ونظامها المعرفي في القرآن الكريم؛ في كتاب: الرؤية الكونية القرآنية كأساس للعلوم الاجتماعية. معهد إسلام المعرفة ومركز التنوير المعرفي(ط2،2007).
- التصور القرآني للاجتماع الإنساني: مقاربة منهجية؛ المجلة الاقتصادية، مركز دراسات المستقبل(ع2، 2010).
- التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي؛ مركز التنوير المعرفي(2004)، الخرطوم.
- العلم والمعرفة بين نموذجين: الظاهرة السبئية حالة تفسيرية(2011)؛ غير منشور.

العالم الثاوية في القرآن، لا سيما رؤية العالم الاجتماعي، ومن ثم الاستفادة منها في أمرين، الأول؛ تسليط الضوء المعرفي على قضايا محددة تُبرِز رؤية القرآن للعالم الاجتماعي أهميتها وأولويتها في تأسيس واستدامة النظام الاجتماعي الإسلامي. الأمر الثاني؛ هو توظيف ما نصل إليه من نتائج معرفية في تلك القضايا المحددة في محاولة لرسم خارطة طريق لأولويات المشروع الإسلامي في السودان، في إطار خبرة الباحث بالزمان والمكان. أرجو أن أؤكد تمييزي بين أولويات المشروع الإسلامي في السودان، وهي أولويات استراتيجية، وبين الأولويات الحالية للدولة والحكومة والمجتمع السوداني، وهي غالبا أولويات آنية تمليها ظروف المدافعة لقوى وأوضاع خارجية وداخلية مشاكسة، لذلك فالغالب أنهما لا يتطابقان بل قد يتقاطعا أحايين كثيرة.

2- المكونات السبعة لرؤية العالم

1.2- يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لابد أن تجيب رؤية العالم عن السؤال الأساس: من نحن؟

2.2- لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

3.2- إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختار بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضّل ما يجب تفضيله؟

4.2- ما هو الخير والشر؟ يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

5.2- إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابد من الإجابة عن السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

6.2- تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم. يجب الإجابة عن السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

7.2- الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيء بل لابد من كُتَلٍ تبدأ بها، وتتمثل في المتاح لنا من علم، سواء كان أصله الوحي أو الكون الطبيعي والاجتماعي.

3- رؤية القرآن للعالم الاجتماعي

1.3- مقدمات منهجية

1.1.3- نزول القرآن منجماً

نزل القرآن منجماً(متفرقاً)، آيات وسوراً، على الظاهرة الاجتماعية الشركية في تجلياتها المختلفة عبر مكان هو الجزيرة العربية، وعبر زمانٍ جاوز العشرين عاماً ابتداءً من أوائل القرن السابع الميلادي، حتى إذا توحدت متفرقات هذه الظاهرة في إطار دين التوحيد كمل الدين، وأعيد ترتيب ما نزل متفرقاً من آيات القرآن ترتيباً توقيفياً، فتوحدت جميعها في إطار كتابٍ هو القرآن الكريم. وقد أثبت العلماء لهذا الكتاب خصائص أساسية منها: وحدته البنائية، وحدته الموضوعية، إطلاق معانيه، عالميته، شموله، خلوده، تصديقه وهيمنته على الكتب السماوية التي سبقته.

النتيجة المنهجية الأولى التي نرتبها على ما سبق هي أن ما ثبت من خصائص معرفية للقرآن الكريم لابد أن يكون لها ما يعادلها من خصائص كونية في الظاهرة الاجتماعية التي تنزل عليها متفرقاً لتفرقها، حتى إذا توحدت شرعة ومنهاجاً توحد القرآن

كتاباً. فهو بهذا المعنى معادل لها معرفياً، ويشمل ذلك تفاعلها مع محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. سوف نرى أن الوحدة البنائية للقرآن تبرز وحدة بنائية مكافئة في الظاهرة الاجتماعية حيث لها متغيرات كونية هي أصولها التي تتفرع عنها وتتسق حولها جزئيات هذه الظاهرة. وسوف يتضح لنا أن هذه المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية هي نفسها الأصول التي بنيت عليها المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. كذلك فإن التفاعلات الكلية بين هذه المتغيرات تقابلها تماماً التقسيمات الكلية المعهودة لأحكام الشريعة الإسلامية.

سوف يتضح من التحليل النظري أن عالمية القرآن وخلوده تستمد شرعيتها العملية من عالمية هذه المتغيرات الحاكمة للظاهرة الاجتماعية، من حيث أنها هي المسئولة عن هذه الظاهرة أينما وجدت، عبر التاريخ والجغرافية، وأن القرآن الكريم بني حولها في تفاعلها الداخلي، وفيما بينها وبين محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. لهذا كان القرآن للناس كافة، بشيراً ونذيراً، وأنه يهدي للتي هي أقوم.

النتيجة المنهجية الثانية لتنجيم القرآن هي أن تنزله تاريخياً على الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة في الزمان والمكان، مع اتصافه بالخلود والعالمية، يعني بالضرورة أن تلك الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة تقوم على متغيرات أساسية تشترك فيها مع أي ظاهرة اجتماعية أخرى، في أي زمان ومكان، ومن ثم تتنزل عليها أحكام القرآن بمقتضى خواصه المعرفية المكافئة للخواص الكونية للظاهرة الاجتماعية، كما سوف يستبين في متن البحث إن شاء الله. ومن البديهي أن يبحث عن هذه المقومات الأساسية المشتركة للظاهرة الاجتماعية في القرآن الذي يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعل متغيراتها الكونية في كل الأحوال. ويعني هذا أن المنهج النبوي، الذي بيّن كيف حكم الخطاب القرآني المطلق عملية تغيير الظاهرة الاجتماعية العربية، المقيّدة بالزمان والمكان، من ظاهرة شركية إلى ظاهرة توحيدية، كان وسوف يظل أبدا منهجا مكافئا للعلاقة الجدلية بين الخطاب القرآني المطلق والواقع الاجتماعي المتغير المقيّد بالزمان والمكان.

2.1.3- الزوجية في الحياة

قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء..)(النساء:1)، يفيد أن الظاهرة الاجتماعية، في كلياتها وتفاصيلها غير المتناهية، إنما انبثقت في مبتدئها من تفاعل زوجين(ذكر، أنثى) فقط؛ إذ إن كلمة بثّ تفيد الانتشار المجتمعي، وليس مجرد التناكح والتناسل. لابد إذن من أن تكون الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية قادرة على أن تفسّر كيف تم هذا البث ومن تفاعل زوجين فقط ابتداءً، وما هي السنن الضامنة لهذا البث في تجلياته المختلفة عبر الزمان والمكان.

3.1.3- مقاصد الشريعة الإسلامية

أكد علماء الشريعة أن الشريعة الإسلامية تدور أحكامها جميعاً حول حفظ الضروريات الخمس: (الدين، النفس، العقل، النسل، المال). إن المعلوم من الدين بالضرورة أن الشريعة الإسلامية تحيط بالظاهرة الاجتماعية في جميع تفاصيلها وتجلياتها، في كل زمان ومكان، توحيداً لشعاب الحياة المتجددة أبداً في دين التوحيد.

نستنتج من ذلك أن ضبط الأحكام الشرعية لجزئيات الظاهرة الاجتماعية إنما القصد منه ضبط الكليات الخمس في إطار التوحيد، وأن أي انفلات لهذه الجزئيات يرجع إلى انفلات من نوع ما لهذه الكليات عن مسارها التوحيدي. إذن انضباط جزئيات الظاهرة الاجتماعية أو انفلاتها عن التوحيد يرجع، من حيث العلة الظاهرة، إلى انضباط أو انفلات كل أو بعض هذه الكليات الخمس عن منهج الله.

سوف يتبين لنا من خلال بسطنا لنظرية الظاهرة الاجتماعية المستمدة من القرآن الكريم أن ما اتفق عليه علماء الشريعة من كليات خمس عليها مدار الشريعة، مع إبدال منهجي لـ "الإيمان" بـ "الدين" و "العلم التوحيدي" بـ "العقل"، إنما هي في حقيقة

الأمر المتغيرات الضرورية التي تتفاعل فيما بينها لإنتاج الظاهرة الاجتماعية التوحيدية، عبر الزمان والمكان، أي التي تدخل بكافة تفاصيلها في السلم، وهذا هو مراد الشارع من وضع الشريعة. لكن إذا أضفنا إلى المتغيرات الخمسة أعلاه متغيري "متاع الحياة الدنيا" و "الهوى" أمكننا تفسير الظاهرة الاجتماعية في جميع تجلياتها، أي في حالة دخولها في السلم كافة (التوحيد)، وفي حالة خروجها من السلم كافة (الكفر)، وما بينهما (الشرك).

4.1.3- **الفطرة**

قول الله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(الروم:30)، يدل على أن الدين الحق، بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان، وشريعته التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة (الخلقة) البشرية التي فطر (خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتجلياتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن؟ وما هي تجلياتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾)(الرعد)؛ (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾)(الصافات)، ثم كيف يكون دين التوحيد الحق(قرآن،سنة) معادلاً في حقيقته وشريعته لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

أولاً؛ ثنائية الخلق من الجسد الطيني والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى: (وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾)(الحجر).

ثانياً؛ ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها: (وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠)(الشمس). خصائص الفجور في النفس تمثلت في صفات فطرية مثل **الشح**: (وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ۝١٢٨)(النساء)، **الهلع**: (إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١)(المعارج)، **الضعف**: (وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨)(النساء)، **العجلة**: (خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ ۝٣٧)(الأنبياء). وتتركب من هذه الخصائص الفطرية وتتفرع عنها صفات سالبة أخرى، تقوى أو تضعف أو تنعدم في الشخص بحسب أحوال الناس، منها: البخل؛ الكبر؛ الحسد..إلخ.

خصائص التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من خصائص الفجور. ومن صفات التقوى: الصبر؛ العدل؛ الإحسان؛ الصدق؛ السخاء..إلخ.

ثالثاً؛ من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خصائص السمع والبصر والفؤاد: (وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨)(النحل).

رابعاً؛ زيّن للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة

البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: (وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه)، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمنا ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.

خامساً؛ أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: (وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾)(الكهف)، وقال: (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾)(النحل).

سادساً؛ جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأي بجانبه، كما في قوله تعالى:(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾)(الإسراء)؛ وفي قوله تعالى:(وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾)(النحل)؛ وقوله تعالى: (وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآ ﴿١٧٢﴾)(الأعراف). لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط

الفطري بالغيب. نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى النتيجة الآتية:

الظاهرة الاجتماعية بجميع مظاهرها في الزمان والمكان إنما هي التجليات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفاً مع كليات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، كما سوف نبيّن أدناه.

إذن قول الله تعالى إن الدين القيّم هو هذه الفطرة التي فطر الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أنه يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها الكونية في كل زمان ومكان، حيث يبيّن القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسّر "خطة الخلق العامة"[2] في عالم الشهادة وتجلياتها عبر التاريخ، ثم يبيّن مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبنى على أصول التقوى في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فساداً: (قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا

[2] - أنظر الصفحات التالية لمعرفة مضمون هذا المصطلح

بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)(الأنعام)، وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾)(الأنعام). كل ذلك حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظلاّمٍ للعبيد.

سابعاً؛ نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقى من الوحي الكريم(إبستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية)، كما أن السنن الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي(أنطلوجيا الظاهرة الاجتماعية) لا يمكن أن تتعارض مع أحكام الوحي المتعلقة بها، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لحكمة التشريع الإسلامي، وعلله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما القوانين الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

2.3- **رؤية القرآن للعالم**(خطة الخلق العامة)

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من

مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض، بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم هو مبدأ التوحيد: (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤)(الإخلاص). فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة فقال: (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠)(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية(خطة الخلق العامة) على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:25).

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه على الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستْخِلف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾(الحجرات)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾)(النساء).

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61).

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:2)؛ (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾)(هود). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:7).

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "**المال**"(موارد معدنية، زراعية، حيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان) و"**البنون**"(علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف:46).

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و "البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(آل عمران:14).

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان:3)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)(الزمر:7).

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من دوافع الفجور والتقوى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق: 5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(10))(الشمس:7-10)؛ ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة(الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق..إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بأخلاق الفجور السالبة(الشح، البخل، الكبر، الحسد..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29).

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي علم وإيمان وعمل صالح: **علم** بالمنعم(الله تعالى)، و**علم** بالمنعم عليه(الإنسان)، و**علم** بالنعمة (المال،البنون) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. **إيمان** بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله

وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. **العمل الصالح** الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضى المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي النفسي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بالجسد المادي كما في قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46) وهي علاقة (رجل– امرأة – أبناء – أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل:72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات:149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تجليات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني

حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦)(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤)(آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم المشرب، والعري الناجم عن عدم الملبس، والإضحاء الناجم عن عدم المسكن، والعنت الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و "المال" و"البنون" من الأصول الكليّة لمقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، الصبر، العدل، الإحسان، السخاء..إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل

الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1/ "العلم بظاهر الحياة الدنيا" وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.

2/ "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الخبر" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت أدت إلى تغشّي الرجل للمرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من

تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو"الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر

البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و "لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ (مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾)(النساء). ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس البشرية، والتي تتعلق بها أخلاق الفجور(الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد..إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى:16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام:32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ

لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى:20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(المؤمنون:37)، أو قال: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(صّ:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص:60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي).

ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تجلياته في السلم. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر:1-3)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)؛ و"البنين": (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الأسراء31-32)؛ و"المال": (وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾)(البقرة:189)؛ و"العلم": (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾)(الإسراء:36).

إن العلاقة بين "الأيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخري هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل الإيمان بوجهيه، العقدي(التوحيد) والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، و حفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)(الأنعام،153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع الفجور، وتمكيناً "للعلم" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولى الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف "الله تعالى" من قبل المستخْلَف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية– بمعناها القرآني لا الاصطلاحي– هى الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هى أصول الاجتماع الإنساني(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين الكونيتين

نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توصف السياسات العلاجية المناسبة.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من رؤية العالم الدنيوية، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم(1)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، في إطار النموذج التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار النموذج الدنيوي.

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، رؤية العالم التوحيدية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يمين الرسم، ورؤية العالم الدنيوية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم(2) يجسّم الرؤية التوحيدية، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم(3) الرؤية الدنيوية. ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية

تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

نموذج قرآني للاجتماع الإنساني

(رؤية العالم الاجتماعي)

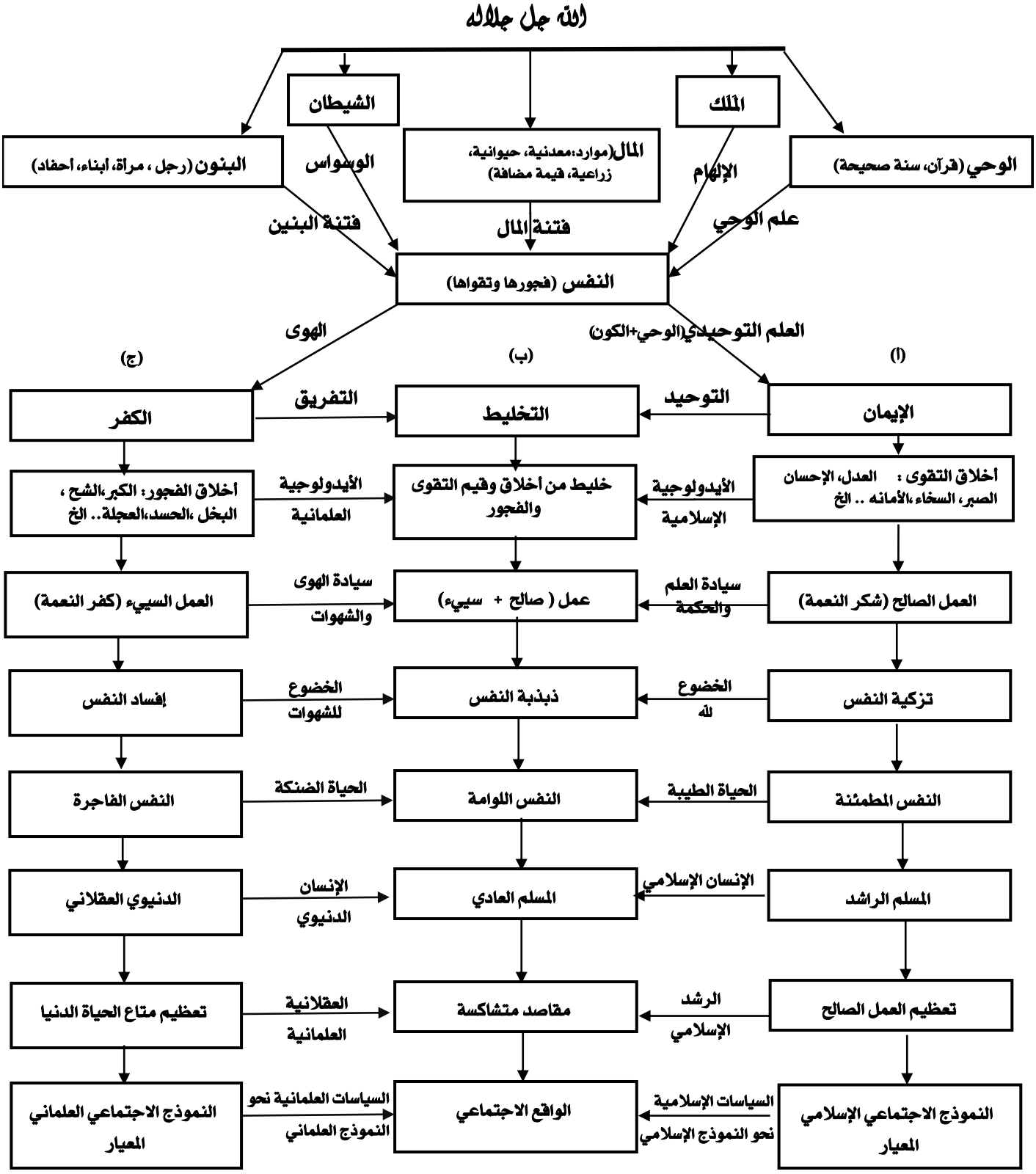

شكل رقم (2)

نموذج الاجتماع التوحيدي

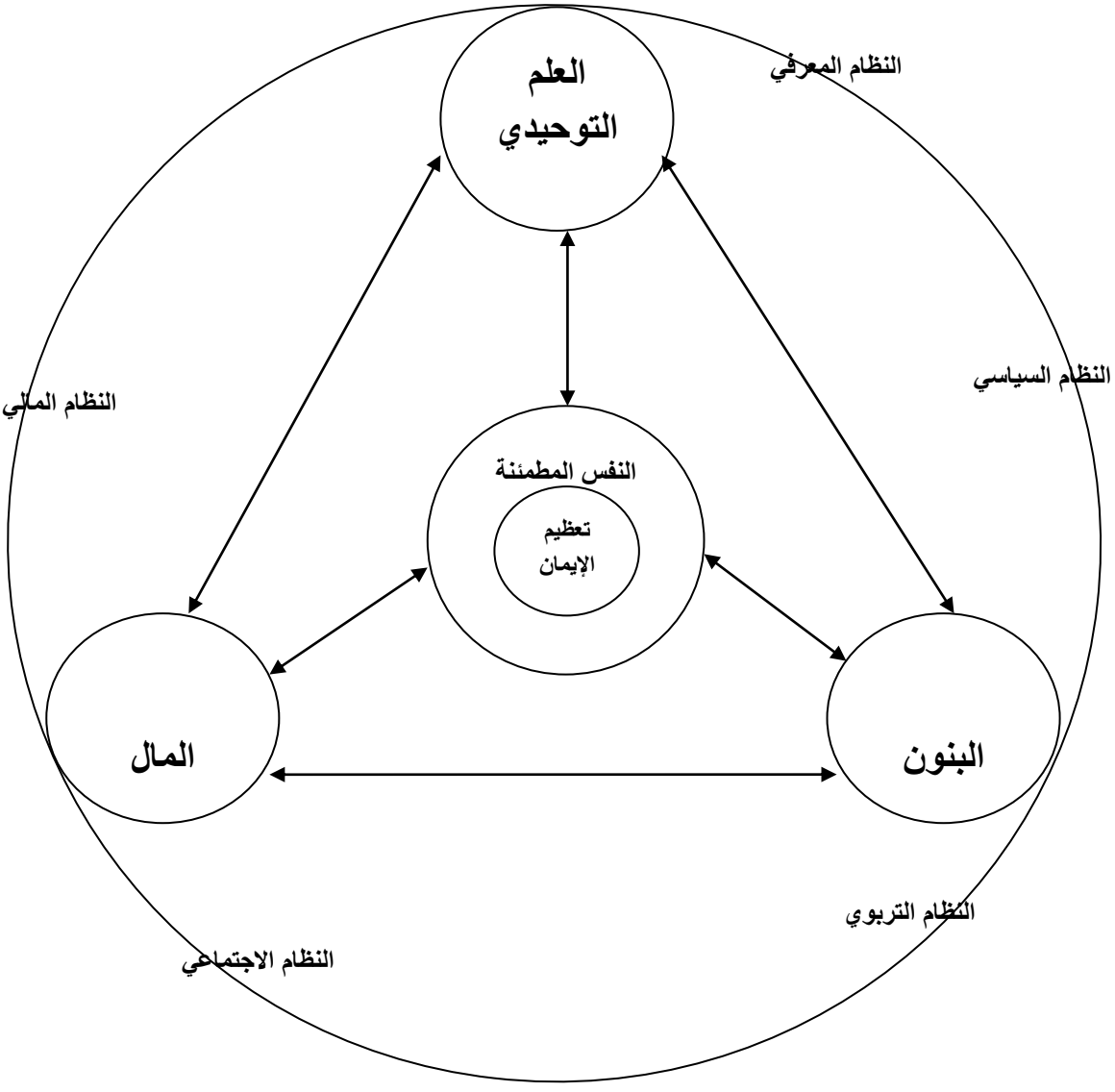

شكل رقم (3)

نموذج الاجتماع الدنيوي

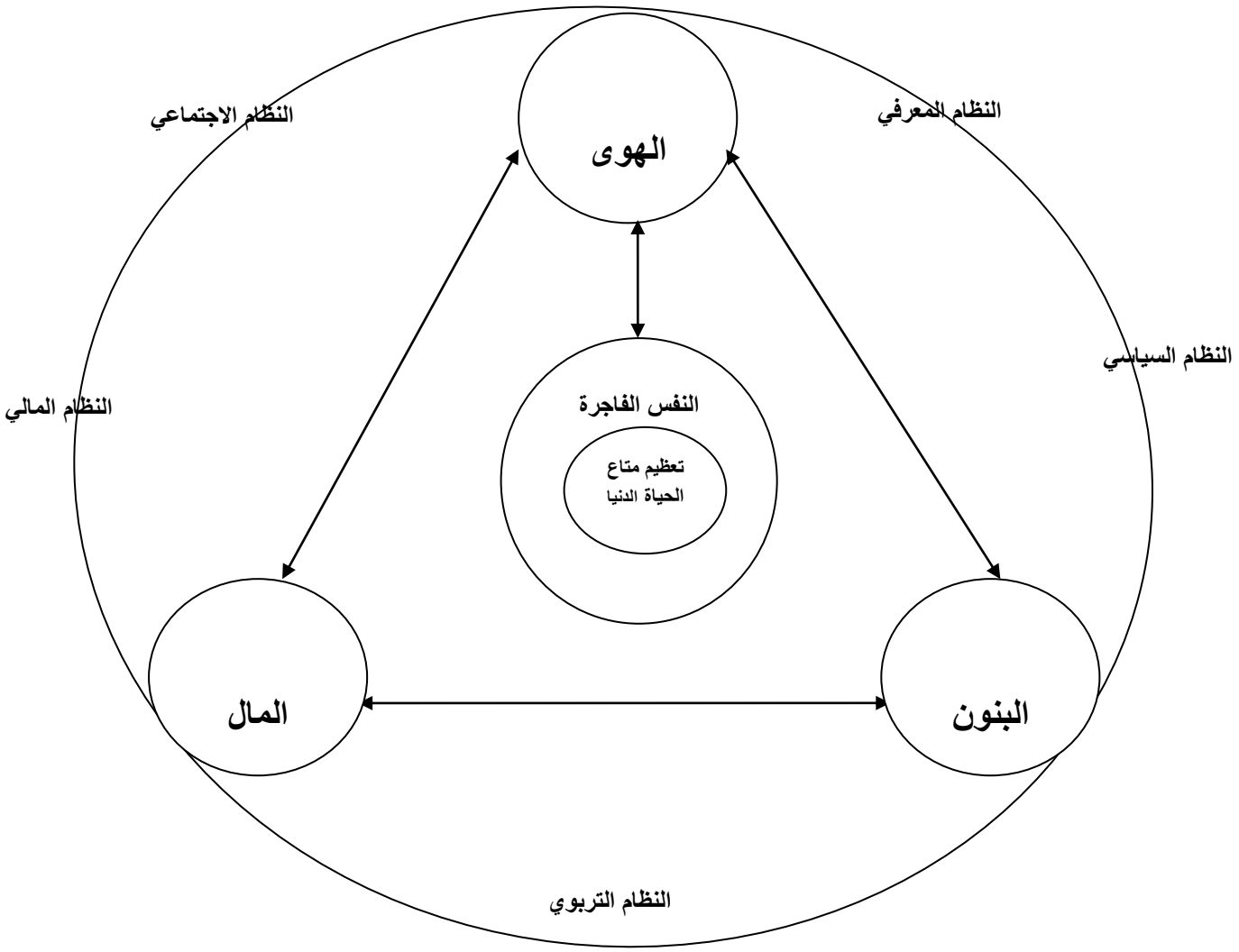

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "الإيمان" متغيرها التابع، ومتغيرات "النفس المطمئنة"؛ "العلم التوحيدي"؛ "المال"؛ "البنون"؛ متغيراتها المستقلة؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العرى، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية(دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهى أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.

ضرب الله تعالى لنا أمثالا في القرآن قارن فيها بين أهم مخرجات النموذج التوحيدي متمثلة في المسلم الراشد وبين أهم مخرجات النموذج الدنيوي متمثلة في الإنسان الدنيوي فقال:

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾)(النحل)؛ (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾)(الزمر).

"تعس عبد الدنيا، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الدرهم والدينار، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش"، فكل شهوة من زينة الحياة الدنيا تنتصب حسناء معلنة عن نفسها وداعية إلاهه(هواه) إليها، ولا يزال يلهث وراء شهوات متشاكسة لا يستطيع قضاء وطره منهن جميعا، ولا يزال يصارع منافسيه عليهن حتى تتقطع به السبل في أودية الشهوات فيجد الله عنده فيوفيه حسابه، والله سريع الحساب. فهو عبد مملوك لشهوات الدنيا ولمن بيده تلك الشهوات من الناس، وكلهم شركاء متشاكسون لايستطيع إرضاءهم جميعا، ولا يمكنه إرضاء أيا منهم دون إغضاب الباقين، فأي خير يرجى من مثل هذا! وهل يستوي هذا ومن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان فجعله من

الراشدين؟ المسلم الراشد خرج عن داعية هواه فهو عبد الله اختيارا، كما هو عبده اضطرارا، فليس فيه شركاء متشاكسون، وهو أبدا على صراط مستقيم.

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هى التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن النظام القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء، الاستنباط)، تدبرا في القرآن، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدت تجلياتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك

التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة. إنّ **خطة الخلق العامة** هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. لذلك فإن البحث العلمي في تجلياتها التاريخية سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

4- رؤية القرآن للعالم الاجتماعي ومقاصد الدين الكلية

الدين في الطرف الأعلى من حبله هو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المبينة لكيف يتغير الواقع الاجتماعي، المقيد بالزمان والمكان، تدينا بخطاب القرآن المطلق، بحيث يتحول ذلك الواقع الاجتماعي، في تجلياته الفردية والجماعية، من أحوال الكفر والشرك إلى أحوال التوحيد على الدوام. وهذا الأخير هو المقصود بالدين في الطرف الأدنى من حبله مقابل الدين في طرفه الأعلى، ويتمثل جوهره في **خطة الخلق العامة** كما بيناها أعلاه. والدين الذي تتضح معالمه الرئيسة من **خطة الخلق العامة** هو شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل)، ولابد من أن تأتي الشرعة قبل المنهاج، فالذي يكرّس جهده في المنهاج دون أن يدري إلى أين يقصد لا يصل أبدا، والذي يعرف وجهته لكنه لا يدري أفضل السبل الموصلة إليها يكون كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. فلابد من تحديد مقاصد الدين بدقة، بشروط الزمان والمكان، ولابد من تحديد أكثر الوسائل المشروعة فعالية في تحقيق تلك المقاصد، بشروط الزمان والمكان أيضا. والشرعة

والمنهاج، لكي تتحول من خطاب موحى إلى واقع اجتماعي، بشروط الزمان والمكان، تحتاج إلى اجتهاد تتكون عناصره من علم وإيمان وعمل صالح.

إن مقاصد الدين الكلية تتمثل في حفظ أصول مجتمع التوحيد، على المستوى الفردي والجمعي، بشروط الزمان والمكان، من جانب الوجود ومن جانب العدم، على الدوام. وتلك الأصول كما تبينها **خطة الخلق العامة** هي: (الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون)، والتفاعل بينها(مجتمع التوحيد)، فتكون بذلك الكليات المقصدية على مستوى الفرد المسلم هى: حفظ الإيمان بالله؛ حفظ النفس؛ حفظ العلم التوحيدي(العقل)؛ حفظ المال؛ حفظ البنين(النسل)؛ من جانب الجود ومن جانب العدم. أما على المستوى الجمعي فإن الأصل هو حفظ مجتمع التوحيد(الدين)، من جانب الوجود ومن جانب العدم كذلك، ويتم هذا الحفظ على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني. وأما الوحي فقد تكفل الله تعالى بحفظه ولم يكل ذلك إلى غيره. ويتسع مفهوم الحفظ من جانب الوجود ليعني الإيجاد ابتداءً ثم النمو والتنمية المؤدية إلى الزيادة أو المانعة من النقصان، لأن جميع هذه الكليات المقاصدية، رغم أنها لا تتبدل أبدا، هي متغيرات في الزمان والمكان، تزيد وتنقص كما ونوعا. ويعني الحفظ من جانب العدم الحماية مما يهدد بزوال أو نقصان تلك الأصول الكلية، لا سيما مهددات "الهوى" و"متاع الحياة الدنيا"، سواء جاء هذا التهديد من داخل مجتمع التوحيد أو من خارجه. والميزان الذي أنزله الله تعالى مع كتابه ليقوم الناس بالقسط في تحقيق هذا الحفظ ولا يخسروه يتلخص في قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠)(النحل).

ويمكن تلخيص حفظ هذه المتغيرات الكلية والمصالح المتأتية منها بالشكل الذي يبرز علاقة الترابط والاعتماد المتبادل بينها فيما يلي من أفكار.

1.4- حفظ الإيمان بالله تعالى على الدوام

ويقصد به، من جانب الوجود، زيادة إيمان من آمن، ودعوة من لم يؤمن إلى الإيمان، ويقصد به، من جانب العدم، حماية إيمان من آمن مما يهدد بزواله أو نقصانه. ويتم حفظ الإيمان بحفظ مدخلاته الضرورية وهي: النفس، العلم، المال، البنون؛ ومُدخَلِه الحاجي وهو: مجتمع التوحيد. لابد من التنبيه هنا إلى أننا جعلنا مجتمع التوحيد مدخلا من مدخلات الإيمان، ولذلك جعلنا حفظ مجتمع التوحيد(الدين) حاجي وليس ضروري لحفظ إيمان المؤمن، لأن المؤمن من حيث هو فرد قادر على حفظ إيمانه وحفظ مدخلات هذا الإيمان سواء كان مجتمع التوحيد قائما أم غائبا، ومثال ذلك عيش المؤمن في غير بلاد الإسلام، أو حتى في بلاد الإسلام التي لا يكون فيها الدين مقاما على مستوى المجتمع. ولكن عندما يكون كل أو جل أفراد المجتمع من المؤمنين فإن إقامة مجتمع التوحيد(الدين)، وحفظه من جانب الوجود ومن جانب العدم، يصبح ضروريا لذاته لأنه تكليف شرعي لجماعة المؤمنين من حيث أن الله تعالى أمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه، وأمر بالحكم بما أنزل الله، وأمر بأن يكون الدين كله لله. ويصبح ضروريا أيضا كوسيلة لحفظ إيمان المؤمنين المكونين لذلك المجتمع لأن انحلال عرى الدين يؤدي إلى فتنٍ عظيمة قد تعصف بإيمان كثير ممن آمن.

2.4- حفظ النفس على الدوام

ويقصد بالنفس هنا كل الإنسان في ثنائية تركيبته الحيوية الفيزيائية والنفسية الروحية. وتحفظ النفس، من جانب الوجود، بتوفير حاجاتها الحيوية من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح، وبتوفير حاجاتها المعنوية من العلم التوحيدي (المحقق للإيمان

في القلب والعمل الصالح في الأرض)، ومن التربية التي تزكيها من أخلاق الفجور وتحققها بأخلاق التقوى. وتحفظ النفس، من جانب العدم، بحمايتها مما يؤدي إلى فسادها الحيوي أو يهدد بذلك كالقتل والفقر والمرض...إلخ، وبحمايتها مما يؤدي أو يهدد بفسادها المعنوي كالجهل وتفشي الفحشاء والمنكر باتباع الهوى وتعظيم متاع الحياة الدنيا.

3.4- حفظ العلم التوحيدي على الدوام

ويقصد بالعلم التوحيدي ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب ويحقق العمل الصالح في الأرض، ويتأتى من التفاعل بين علم الوحي وعلم الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي، ونطلق عليه اصطلاحاً "العلم التوحيدي" لأنه يتوحد في ذاته ويوحّد الحياة عبادة لله الواحد. ويحفظ العلم التوحيدي، من جانب الوجود، بتقوى الله وبالبحث العلمي في مصدريه، الوحي والكون، وبتطبيق حقائقه في التعرف على الكون الطبيعي والاجتماعي من أجل العمران، وإقامة الوزن بالقسط وعدم إخسار الميزان. ويحفظ، من جانب العدم، بحمايته مما يؤدي أو يهدد بزواله مثل اتباع الهوى و الشهوات من قبل العلماء، وغياب مقومات البحث العلمي، وعدم العمل بالعلم في الواقع الاجتماعي.

4.4- حفظ المال على الدوام

ينقسم مفهوم المال في القرآن إلى قسمين: القسم الأول، هو البعد البيئي ويتعلق بالموارد الطبيعية والبيئة الداعمة لوجودها كما في قوله تعالى: (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقطبا، وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا وفاكهة وأبا، متاعاً لكم لأنعامكم)، وفي قوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)، **أو** في قوله تعالى:

(زين للناس حب الشهوات من ... والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث).

القسم الثاني من المال، وهو البعد الاقتصادي ويتعلق بما عملته يد الإنسان في الموارد الطبيعية من قيمة مضافة حولتها إلى سلع نافعة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿33﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾{يس،35}، أو كما في آية(زين للناس) السابقة، إشارة إلى اللذّات التي يحصلها الإنسان بعمله في تلك الموارد الطبيعية.

يحفظ المال في بعده البيئي، من جانب الوجود، بالنظر إلى الموارد الطبيعية باعتبارها رأس المال الطبيعي الذي يجب الحفاظ عليه بتنميته، وإصلاح ما أفسد الإنسان منه. ويحفظ من جانب العدم بأن يأكل الناس من عائدات استثماره، لا من أصله, بحيث لا يستغل من الموارد المتجددة إلا بمقدار قدرتها على تجديد نفسها، ولا يستغل من الموارد غير المتجددة إلا بمقدار ما يمكن تعويضه بالاستثمار في بدائل لها.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب الوجود، بإنشاء نظام اقتصادي يتأسس على مبادئ العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالإنتاج للطيبات في جانب العرض، وبتوظيف ما ينتج، في جانب الطلب, إما للاستهلاك المباشر، الخاص منه والعام، وإما للاستثمار وزيادة رأس المال، الخاص منه والعام أيضا، وبالالتزام بالأحكام الشرعية الضابطة للمعاملات الاقتصادية في كل الأسواق. وما ينتج للاستهلاك الخاص ينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ الإيمان والنفس والعلم والبنين من المال، على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني، أما ما ينتج لاستهلاك القطاع العام فينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ مجتمع التوحيد، على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني كذلك. وينبغي أن تستغل الموارد الطبيعية بصورة فعالة(efficient) ومثلى (optimal) في الإنتاج بحيث تلبي شروط حفظ البيئة الطبيعية المذكورة آنفا.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب العدم، بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي، سواء في مجال الإنتاج، أو الاستثمار، أو الاستهلاك، أو في الأسواق.

5.4- **حفظ البنين على الدوام**

مفهوم البنين في القرآن الكريم، كما مفاهيم المال والنفس والعلم، مفهوم جامع يعبر عن علاقات كلية وتفصيلية تحيط بحقله الدلالي، فعلى المستوى الكلي يعبر المفهوم عن مطلق العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى، وما ينجم عن هذه العلاقة من أبناء، باعتبارهما شهوة تماثل شهوات القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث. أما على المستوى التفصيلي فتندرج تحت المفهوم علاقات زواج شرعية بين الرجل والمرأة، وعلاقات زنا محرمة، وعلاقات والدين وأبناء وحفدة...إلخ.

ويمكن توليد مفاهيم عملية من مفهوم البنين نؤسس عليها مبدأ الحفظ، أحدها مفهوم كمّي وهو مفهوم **الناس** من حيث العدد، ويتأتى من العلاقة الجنسية بالتوالد والتكاثر. والمفاهيم الأخرى مفاهيم نوعية هي مفهوم **الشعب**، ومفهوم **القبيلة**، ومفهوم **الأمة**؛ أي مفاهيم الاجتماع الإنساني، وتتأتى من العلاقات الاجتماعية بين الناس، بدءاً من العلاقة الأسرية وانتهاءً بالعلاقات القومية والأممية. ويعبر مفهوم الشعب ومفهوم القبيلة عن علاقات تتأسس على آصرة العصبية للرحم أو الجنس أو اللسان، بينما يتأسس مفهوم الأمة على آصرة الولاء للعقيدة والفكرة الجامعة المتسامية فوق الأواصر العنصرية[3]. ويجمع ذلك كله قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾{الحجرات،13}. وتشير الآية إلى أن الآصرة الإثنية الحكمة منها هو التعارف، أما معيار التفاضل والكرامة فمحلّه آصرة العقيدة: (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم).

[3] - أنظر لؤي صافي: العقيدة والسياسة؛ إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ (ط2، 1998)

يحفظ البنون، من حيث العدد، من جانب الوجود بالزواج الشرعي بين الرجل والمرأة، والتناسل والتكاثر، وبالالتزام بالضوابط الشرعية في الأفعال والأعمال المتعلقة بهذه العلاقة. ويحفظ البنون من جانب العدم بالابتعاد عن الزنى وعن إجهاض ووأد الأبناء وبالامتناع عن التبتل. ويدخل حفظ النفس من جانب الوجود ومن جانب العدم، كما بينا سابقاً، كعامل أساس في حفظ البنين في هذا البعد الكمّي للناس.

يحفظ البنون، من حيث الاجتماع الإنساني، من جانب الوجود بتأسيس نظام اجتماعي يقوم على العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ويحفظ من جانب العدم بالإنتهاء والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. ومفاهيم العدل، الإحسان، إيتاء ذي القربى، الفحشاء، المنكر والبغي هي مفاهيم قرآنية كلية جامعة تتسع لكل ما من شأنه صلاح النظام الاجتماعي.

6.4- حفظ مجتمع التوحيد على الدوام

مجتمع التوحيد الخالص(المعيار) يتأسس ابتداءً على التفاعل بين المتغيرات الكلية الضرورية، وهي: الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، المال، البنون، ثم على بقية التفاعلات الجزئية المنبسطة في كل تفاصيل الظاهرة الاجتماعية التوحيدية. لأن هذه المتغيرات الخمسة هي أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية، فقد أصبحت بذلك أصل المصالح الشرعية؛ الضرورية والحاجية والتحسينية، فاستحقت أن تكون الكليات الخمس الشهيرة التي تتأسس عليها مقاصد الشريعة الإسلامية. ولكن التفاعل بين هذه المتغيرات في إطار الجماعة من المؤمنين، في الزمان والمكان، يقتضي قيام مجتمع التوحيد بترتيباته ونظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو مطلوب شرعا كما ذكرنا آنفا، فأضحى بذلك حفظ نظام المجتمع ككل وسيلة ضرورية لحفظ أجزائه المكونة له. إن الدين، إن كان الطرف الأعلى لحبله الذي أمرنا بالاعتصام به هو الوحي الذي تكفّل الله تعالى بحفظه، فإن الدين في الطرف الأدنى لحبله هو التفاعل الحي بين المعتصمين

المؤمنين في مجتمع التوحيد انفعالا بهدْي الوحي وحكمته ووقْع ذلك في الحياة العملية، أي إنه جملة كسب المؤمنين من التديّن، علما وإيمانا وعملا صالحا في زينة الحياة الدنيا، أفراداً وجماعة. إذن الدين في الطرف الأدنى لحبله هو مجتمع التوحيد المعني بالحفظ في مقاصد الشريعة الإسلامية، وحفظه لن يكون فقط بجهاد الأعداء من الخارج ولكن أيضاً بحفظ أصل نظمه الجزئية المكونة له من الداخل، وضمان أنها تعمل على أساس التوحيد، على الدوام. إذن لدينا خمسة أصول مقاصدية يتعلق حفظها بالفرد المؤمن ابتداءً (الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون) ليتحقق توحيده وتطيب حياته، ثم وسيلة ضرورية تتجاوز الفرد إلى الجماعة، وهو مجتمع التوحيد(الدين). إنّ المتغيرات الخمسة، وإن كانت هي المؤسسة للمجتمع ابتداءً إلا إنه لا يتكّون من مجموعها، بل هو أكبر منها، فاستحق أن يكون حفظه ضروريا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. مثال هذا كمثال الجسد له أعضاء كثيرة متفاعلة ومتعاضدة ومتواقفة، وكل منها يؤدي وظيفة بعينها، ولكن يجمعها كلها الجسد الذي هو أكبر من مجموعها، ولو لم يحفظ في وحدته، لاختل نظامها وانفرط عقدها.

المتغيرات الضرورية المتفاعلة علي المستوى الفردي الجزئي، يقابلها على المستوى الاجتماعي الكلّي نظم جزئية(المعرفي، التربوي، المالي، الاجتماعي) تتفاعل داخلياً وفيما بينها ومع نظم جزئية أخرى مكملة لها، كالنظام السياسي، لتشكل في مجموع علاقاتها النظام الأتم لمجتمع التوحيد. ولأن من المستحيل تحليل جميع هذه التفاعلات الكليّة في وقت واحد فإن المنهجية الأوفق هي تحليل العلاقات الداخلية لكل نظام جزئي منفرداً، والتأكد من أنه يعمل وفق النظام التوحيدي الأشمل. ويلي ذلك تحليل العلاقات البينية للنظم الجزئية، ثم إن تيسرت وسائل التحليل أن ينظر في العلاقات البينية مجتمعة في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي الشامل.

إن الذي يضمن لنا التناغم بين جميع النظم الجزئية الضرورية المكونة للنظام الكلي هو

تأسيسها في جميع تفاصيلها على مقاصد الشارع التي هي مقاصد المؤمن الراشد. إن الشريعة وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، ولكن العباد خلقوا لحكمة كلية هي عبادة الله التي أصلها إيمان وعمل صالح، مادته الابتدائية زينة الحياة الدنيا، وثمرته الشكر على تلك النعم. فالشكر هو القيمة الأخلاقية العملية والمقصد الأعظم الذي يتجلى من خلاله إيمان المؤمن في فضاء العمل الصالح، وهو القانون الكلي الضامن لحفظ نظام المجتمع التوحيدي واستدامته. وتحت قانون الشكر تندرج جميع القيم الأخلاقية العملية الأخرى مثل الصبر والعدل والإحسان والصدق والأمانة...الخ، فهي تعمل في نظام المجتمع لينتهي أمره إلى حال من الشكر، يزيد النعمة ويديمها(الحياة الطيبة). وإذا كان الشكر ينطوي على علمٍ وحالٍ وعمل، فإن الجانب العملي يعني أن ينبني العمل على مقصد تحقق الحكمة من النعمة. فلابد إذن من أن تطرد حقيقة الشكر في جميع النظم الجزئية فتوحد بينها.

5- رؤية القرآن للعالم الاجتماعي وعلوم الدين الضرورية

العلم هو اليقين بالحق المبتغى في المعلوم، سواء كان هذا المعلوم خالقا أو مخلوق. وينبني هذا التعريف على ثلاث قضايا، وهي:

1/ الوجود المستقل للحق موضوع العلم؛

2/ يقين العالم بتحصيل هذا الحق(context of discovery)؛

3/ البرهان بصدق هذا اليقين(context of justification)

العلم جوهر يستقل بوجوده عن الإنسان العالِم، لذلك فإن اليقين يتعلق بالمنهج الذي يتبعه العالم للوصول، أولا؛ إلى العلم الذي يطلبه، ومن ثم درجة اطمئنانه القلبي إلى ما توصل إليه، فقد يكون ظنا راجحا، وقد يكون يقينا رافعا للظن، في درجات اليقين الثلاث: علم اليقين؛ علم عين اليقين؛ علم حق اليقين. وهذه المرحلة تسمى في فلسفة العلوم مرحلة

الكشف والإلهام(context of discovery)، حيث يظل العلم خاصا بصاحبه. ثم، ثانيا؛ للوصول إلى إقناع غيره من العلماء بصدق يقينه هذا حيث يلزمه الدليل والبرهان، وتسمى هذه المرحلة في فلسفة العلوم مرحلة التبرير(context of justification). وقد يظل العلم مقتصرا على صاحبه لملابسات تتعلق بطبيعة العلم أو العالِم أو المنهاج.

العلم، كما عرّفناه سابقاً، له في القرآن مكان علي وشأن عظيم، فقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه عليم وعالم وعلاّم، وجعل العلم هو الفيصل في اتخاذ المواقف والخيارات العقدية وغيرها: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴿٣٦﴾)(الإسراء)؛ (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾)(النساء)؛ (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾)(الأنعام)؛ (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾)(الأنعام). كذلك قصر الله سبحانه وتعالى تقواه وخشيته على العلماء من عباده، لا سيما الراسخون منهم في العلوم الكونية، ورفعهم درجات على من سواهم من عباده المؤمنين؛ وهو دليل على أهمية البعد العقدي في العلوم الكونية: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾)(فاطر)؛ (قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾)(النحل)؛ (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾)(المجادلة). كذلك وصف الله سبحانه وتعالى

القرآن بأنه علم: (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾)(الرعد)؛ (فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾)(آل عمران).

ورغم أن الكسب البشري المعاصر في مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية عجز حتى الآن عن تحقيق العلم كما عرّفناه سابقاً، وذلك بسبب قصور النسق الذي من خلاله يتم النشاط المعرفي(الوضعية)، إلا أن الحفاظ على مثل هذا التعريف للعلم مهم في إطار النسق المعرفي التوحيدي حتى لا ننتهي إلى النسبية المعرفية التي انتهت إليها كثير من نظريات المعرفة المعاصرة عند الغربيين.(5) كذلك فإن قبول هذا التعريف للعلم مهم حتى لا تقعد بنا الهمة عن البحث عن الحق بدعوى أن ذلك غير ممكن، ومن ثم إنكار وجود الحقيقة الموضوعية ابتداءً.

يمكن أن نقول بصورة عامة إنّ نوع العلم المطلوب في إطار **خطة الخلق العامة** يحدده المقصد من خلق الإنسان، وهو كما جاء في القرآن عبادة الله تعالى، أي العلم به، والقيام بأمره ونهْيه في أرضه، بمقتضى شرعه. إذن العلم التوحيدي المطلوب هو ذلك الذي يتعرّف الإنسان به على خالقه من خلال خلقه أو كلامه، و يهتدي به إلى الحكمة من خلق الإنسان والكون، ومن ثم يعينه على العمل بمقتضى تلك الحكمة: (وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾)(النحل)؛ (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾)(المؤمنون)؛ (ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾)(السجدة)؛ (قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ

أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾(الملك). إذن، الحكمة الأولية من العلم، ومن تزويد الإنسان بأدوات تحصيله(السمع، البصر،الفؤاد)، كما يبينها القرآن، هي التحقق بالشكر لله تعالى في عمارة الأرض، عملا صالحا في زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، وهو المعنى العملي للإيمان.

ولكن الضرورة البديهية تقتضي أن يكون ابتداء هذا العلم وحيا من الله تعالى، حتى يحيى من حيىّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾)(الإسراء)؛ (رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾)(النساء)؛ (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾)(التوبة). وهكذا أنزل الله تعالى القرآن الكريم كتابا يحوي تفاصيل بعضٍ من هذا العلم التوحيدي، والبعض الآخر من العلم جاء القرآن الكريم بتوضيح طبيعته وتحديد مفاتحه في شكل كليات ينبغي أن تؤسس عليها تفاصيل ذلك العلم. أما التفاصيل هذه فقد تُركت لكسب العقل البشري، لأن ذلك ميدان الامتحان الذي تقوم عليه "**خطة الخلق العامة**": (ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾)(يونس).

ما هي إذاً العلوم التوحيدية الضرورية التي يعبر عنها متغير العلم في النموذج التوحيدي في إطار **خطة الخلق العامة؟** ما يلي هو جهد المقل، والله سبحانه المستعان وعليه التكلان، وفوق كل ذي علم عليم.

لا شك أن أول ما يتبادر إلي الذهن هو ما يمكن تسميته "علم العلم" أو "فلسفة العلوم" الذي يدرس ماهية العلم وقضاياه ومصادره ومناهجه ومقاصده ومن هو العالم. ثم ماذا بعد ذلك ؟ فلنرجع إلي الدالتين التوحيدية والدنيوية اللتين تلخصان **خطة الخلق العامة** ولنتأمل بإيجاز وإجمال أنواع العلوم المطلوبة لتتحقق بالإنسان حكمة الخالق من الخلق.

إذا تفكرنا في الدالة التوحيدية نجد أن الله تعالى قد جعل العلم هو السبيل الوحيد إلى الإيمان به وتوحيده: (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩)(محمد)؛ (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨)(آل عمران). يقتضي هذا نشأة علوم التوحيد التي تقوم بالاستدلال من الوحي على الموحي ومن الخلق على الخالق تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢)(النساء)؛ (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣)(فصلت). وهى في الجملة تأتلف من علوم نقلية وعقلية وكونية، ولها مداخلها في القرآن الكريم، وينبغي تأسيس تلك العلوم على هذه المداخل حتى تؤدى وظيفتها المطلوبة كأدلة إيمان بالله الواحد.

ثم إذا نظرنا إلي زينة الحياة الدنيا" **المال،البنون**" كنعم كُلّفنا بالانتفاع وعمران الأرض بها وتأدية شكرها، لزم من ذلك علوم كونية تمكّن من معرفة خصائص تلك النعم التي بها ذُلّلت للإنسان وسُخّرت بما يمكّن من الانتفاع بها وتحقيق الحكمة من خلقها. هذه العلوم الكونية الوظيفية أيضاً لها مداخلها في القرآن، وينبغي تأسيسها على تلك المداخل. فإذا جئنا إلي المنعَم عليه"**الإنسان**" فهناك نوعان من العلوم يتعلقان به، أولها العلوم التي تتعلق بدراسته ككائن حي– **نفساً وجسداً**– لمعرفة خصائصه النفسية والحيوية والفيزيائية التي تمكّن من تحديد العلاقة النفعية المثلى بينه وبين زينة الحياة الدنيا، بما يحفظ عليه حياته ويحفظ التوازن الكلى للبيئة. لقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء موزون، ولكن الإنسان هو الذي يقيم هـذا الوزن بالقسط، أو يخسره: (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩)(الرحمن)؛ (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ٢٥)(الحديد)؛ (وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١)(الأعراف)؛ (قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ

وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾)(الأعراف).

ثم هناك العلوم المتعلقة بالإنسان ككائن مُكلّف في إطار مجتمعي، وهى علوم بعضها يتعلق بدراسة المقاصد التي يريد الخالق من الإنسان تحقيقها، والأحكام الشرعية التي عليه الالتزام بها ليتمكن من تحقيق تلك المقاصد، وهي عموماً العلوم التي تحكم ميزان التفاعل بين المتغيرات الثلاثة "**النفس،المال،البنون**"، والإطار المجتمعي المتولد عن هذا التفاعل، ومنها علوم المقاصد وعلوم فقه الظاهر وفقه الباطن، بما يزكي النفس ويحقق شكر النعمة. إن الله تعالى أمرنا بأن نترك ظاهر الإثم وباطنه، ونقصد بفقه الباطن تلك العلوم المتعلقة بالأخلاق وبتزكية النفس وتربيتها، في إطار فهمنا لأخلاق التقوى والفجور، وتفاعلها مع الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا. وهي جميعها علوم معيارية تتعلق بحفظ نظام الاجتماع التوحيدي، من جانب الوجود، في مسار التوحيد على الدوام.

ولكن تفاعل المجتمع بمقتضى المقاصد والأحكام والسياسات الشرعية، وأخلاق التقوى، ومحاولة المكلفين توفيق أوضاعهم لتصبح مقاصدهم وأفعالهم وتدافعهم وفق ما جاء به الشرع، أي تأسيس الاجتماع التوحيدي على مبدأ **تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح**(الدالة التوحيدية)، يؤدي بعد حين إلي ظهور أنماط من السلوك والعادات الراشدة الراتبة، تنجم عنها بالضرورة ظواهر اجتماعية تكون أحد الأسباب الداعية إلي نشأة علوم اجتماعية توحيدية تهتم بدراسة تلك الظواهر. وهذه الظواهر الاجتماعية هي البشير الذي يدل علماء ومنفذي السياسات الشرعية على اتجاهات المجتمع، ومن ثم على ثمار تصوراتهم الكلية وخططهم العلمية وبرامجهم العملية التنفيذية. ورغم أن هذه الأنماط السلوكية الراشدة الراتبة لا تمثل سننا ثابتة"Laws" في حد ذاتها، إلا أنها بانتظامها هذا تمثل العامل الحاسم في تحقيق سنن الله الاجتماعية الجالبة للنفع بإذن الله، التي تتفعّل بالفعل الراشد يأتي به المؤمن، أفرادا وجماعة. من هذه السنن سنة **الشكر**: (وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ ومنها سنة **الهداية**:(وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾)(العنكبوت)؛ ومنها سنتيْ **الفرَج والحسْب**: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن

يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾(الطلاق)؛ ومنها سنة **الحياة الطيبة**: (مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾(النحل)؛ ومنها أم السنن الاجتماعية، وهي سنة **الابتلاء والفتنة**: (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ﴿٧﴾(هود)؛ (ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾(الملك)؛ (وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾(الأنفال)؛ (كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾(الأنبياء)؛ (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾(الفرقان)؛ ومنها سنة **النصر**: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾(محمد)؛ ومنها سنة **التدافع**: (وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾(البقرة)....الخ.

هذه العلوم الاجتماعية المؤسسة على معطيات النموذج التوحيدي منها الوصفي والبعض الآخر معياري، ولكن يجب أن تؤسس جميعها على المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية، فهي قوانين ربانية يدخل في دائرة عملها الإنسان بفعله فتتفعّل وتتحقق نتائجها في الواقع الاجتماعي والطبيعي، ولو بعد حين؛ فهي لا تتخلف أبدا، متى ما تحققت شروطها، تماما كالقوانين الطبيعية: (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾(الاحزاب)؛ (سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾(الفتح)؛ (قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾(آل عمران)؛ (وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾(الروم).

وحتى تكتمل الخارطة الكلية للعلم الإسلامي في مجال السنن الاجتماعية سوف نستدعي هذه الجزئية من النموذج المعرفي الدنيوي لإن العلم الذي ينتجه هذا النموذج في مجال الاجتماع الإنساني هو جزء أصيل من العلم الإسلامي. إذا نظرنا إلي الدالة الدنيوية

فسوف نتبين أمرين هامين فيها، أولهما، بجانب كونها أساس النموذج الدنيوي، أنها دالة قوية الحضور والتأثير في مقاصد وسلوك المكلّف المسلم، ومن ثم في المجتمع المسلم، وذلك بمقتضى الفطرة الإلهية المتجلية في **خطة الخلق العامة**. بل إن الواقع التاريخي للمسلمين يقول إن تأثير هذه الدالة أكبر بكثير على مجرياته، أفرادا وجماعة، من الدالة التوحيدية. لذلك نجد أن الواقع التاريخي لأي مجتمع إسلامي يعبر في حقيقته عن أثر التدافع بين الدالة التوحيدية والدالة الدنيوية على أحواله، أفرادا وجماعة، بحيث يميل ذلك الواقع أكثر إلى تجليات النموذج الدنيوي، في الزمان والمكان، عندما يغلب أثر الدالة الدنيوية على شئونه، والعكس صحيح. فهو دائما مجتمع هجين، لا توحيدي خالص ولا دنيوي خالص. الأمر الثاني هو أن هناك مجتمعات دنيوية"علمانية"، هي غالب المجتمعات البشرية عبر التاريخ، تنشأ على معطيات هذه الدالة، وتكون ذات تأثير وتأثر بالواقع الاجتماعي للمسلمين الذي ينجم عن التجلّي التاريخي للدالة التوحيدية، سواء كان هذا الواقع مجتمعا إسلاميا مستقلا، أو أفرادا وجماعات إسلامية تعيش في المجتمع الدنيوي المعني، أو أفرادا وجماعات دنيوية تعيش في المجتمع الإسلامي. ونعبّر عن هذا بقولنا إن الدالتين تتزاحمان بوقعهما في الزمان والمكان؛ وهو تزاحم صراعي في الغالب، ولكنه قد يكون صراعا عنيفا حاسما: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤)(الممتحنة)؛ وقد يكون صراعا حذرا: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧)(الأعراف)؛ وقد يكون صراعا جدليا ينتهي نهاية دراماتيكية: (وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾)(هود)؛ وقد يكون صراعا باردا يعتمد على الكر والفر والمكر: (لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾)(الأحزاب)؛ وقد يكون صراعا شاملا مستداما: (وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴿٢١٧﴾)(البقرة).

وبسببٍ من هيمنة هذه الدالة على الواقع الذي ينجم عن زمرة الفعل في النموذج الدنيوي، وأثرها القوي على الواقع الذي تنتجه زمرة الفعل في النموذج التوحيدي بما يجعل الواقع الاجتماعي للمؤمنين ليس توحيديا صرفا ولا دنيويا صرفا، فسوف تكون هناك أفعال عقلانية راتبة، ولكنها غير راشدة، تتأسس على مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، تؤدي إلى بروز ظواهر اجتماعية على شاكلتها في المجتمعين. وهذه الظواهر الاجتماعية هي النذير الذي يدل علماء ومنفذي السياسات الشرعية على اتجاهات حركة المجتمع، ومن ثم على ثمار تصوراتهم الكلية وخططهم العلمية وبرامجهم العملية التنفيذية. ورغم أن هذه الأنماط السلوكية الراتبة وغير الراشدة لا تمثل سننا ثابتة"Laws" في حد ذاتها، إلا أنها بانتظامها هذا تمثل العامل الحاسم في تحقيق سنن الله الاجتماعية الجالبة للضر بإذن الله، التي تتفعّل بالفعل غير الراشد يأتي به المؤمن، أفرادا وجماعة. لذلك لابد أن تبنى علومنا الاجتماعية الإسلامية، ليس فقط على قواعد الدالة التوحيدية، بل أيضاً على قواعد الدالة الدنيوية، إن أردنا الإحاطة العلمية بالظاهرة الاجتماعية، عبر الزمان والمكان، تفسيرا وتأويلا، أيْ إن أردنا صفتيْ الموضوعية والعالمية لعلومنا الاجتماعية الإسلامية. وسوف تحكم هذا الجانب من العلم الاسلامي السنن الاجتماعية الجالبة للضر بإذن الله،

حيث يدخل المسلم وغير المسلم دائرة تأثيرها بعمله غير الراشد(الفاسد) فتتفعّل بوقعها الضار على حياة الفرد حصرا أحيانا، ويعم ضررها بيئة الطبيعة والمجتمع أحايين أخرى.
من هذه السنن سنة **الكفر**: (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ ومنها سنة **المعيشة الضنكة**: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه)؛ ومنها سنة **الإعشاء**: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾)(الزخرف)؛ ومنها سنة **الاستدراج**: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)(المؤمنون)؛ ومنها سنة **الإحاقة**: (ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾)(فاطر)؛ ومنها سنة **المحق**: (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾)(البقرة)؛....الخ.
ومن رحمة الله بعباده أن الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي، الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي الله عنه، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في عهده: (فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾)(الذاريات). ولأنّ سنن الله الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية، ولأنّ هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحيانا، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإنّ معرفة زمان ومكان ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح أو مفاسد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علميا، ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل يكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ

﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾)(الأعراف).

ولكن أحوال الأفراد والمجتمعات، والمصائب التي تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤشر على اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة(Regularities)، وتصنيف هذه الأعمال من حيث صدورها عن النموذج التوحيدي أو النموذج الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة من الوحي، أو من التاريخ(الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب الظاهرة الاجتماعية، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

وعلى أساس من معطيات هاتين الدالتين المعبرتين عن النموذجين المعرفيين، وعلى أساس من التفاعل بينهما في إنتاج الاجتماع الإنساني بكل تجلياته عبر التاريخ تتأسس علوم التاريخ والعلاقات الدولية وغيرها من العلوم المعنية بالاجتماع الإنساني في جملته، وفي ديناميته.

منشأ العلوم الطبيعية في النموذج المعرفي التوحيدي نقدّر أنه يعود إلى أصلين: الأول؛ هو مقتضى الناتج الإيماني في **خطة الخلق العامة** حيث الحاجة إلى التفكّر العلمي في خلق السموات والأرض والسنن التي تحكمها، من حيث هي آيات خلق تدل على الخالق، الثاني؛ منشؤه عمارة الأرض، الناجم عن الإقبال على زينة الحياة الدنيا، المقتضي لمعرفة أسرارها وسننها التي بها يمكن تسخير الطبيعة والانتفاع بمواردها، مما يمكّن من القيام بواجبات الاستخلاف على الأرض. والمسلمات القبلية لهذه العلوم ينبغي أن تأتي من الوحي الكريم، بينما قوانينها العلمية تأتي من التدبّر في الوحي والتفكّر في خلق السماوات والأرض.

6- رؤية القرآن للعالم الاجتماعي والتنمية المستدامة

العملية التنموية في مجملها مقاصد(Goals) ، ووسائل(Means) ، ومحددات (Constraints) ؛ فالمقاصد تتعلق بالحياة الطيبة التي يطمع مجتمع ما أن يحققها لأفراده، أيا كانت مكوناتها ومستواها؛ وقد أثبت القرآن الكريم للكافرين طيباتهم في هذه الدنيا: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾)(الأحقاف).

والوسائل هي جملة الترتيبات المجتمعية، والعمليات(Processes) الفردية والجمعية، التي يرى المجتمع أنها ما يلزم اتخاذه للسير قدماً نحو تحقيق تلك الحياة. والقيود هي تلك العوائق التي تقف في طريق المسير نحو الهدف، والتي لابد من أخذها في الاعتبار، فمنها ما يمكن إزاحته أو تجاوزه، لاسيما تلك التي من صنع البشر، ومنها ما يصبح محدداً للمسيرة التنموية كالسنن الإلهية؛ تشريعية وطبيعية. أما الاستدامة فهي حال يرجى أن تصبح سمة للمسيرة التنموية متى تحققت شروطها.

الآية القرآنية الجامعة لمقاصد ووسائل التنمية في النموذج التوحيدي قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾)(النحل)، حيث جعلت الآية الحياة الطيبة مقصداً نهائياً يتوخاه المؤمنون في الدنيا والآخرة، ويعد الله تعالي بتحقيقه في الدارين، إن أخذ المؤمنون بالوسائل (الأسباب) اللازمة لذلك، وهي: الإيمان والعمل الصالح. ويعضد

هذا المعنى آيات أخر من القرآن كما في قوله تعالى: (قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه).

إذن المقصد التنموي في النموذج التوحيدي هو الحياة الطيبة، كما في النموذج الدنيوي، وإن كانت مكونات هذه الحياة الطيبة تختلف في كثير من عناصرها بين النموذجين، حيث نسب الله تعالى طيبات الكافرين إليهم ونسب طيبات المؤمنين إليه تعالى. كذلك فإن النموذج التوحيدي يحدد، بصورة لا لبس فيها، الوسائل الواجب اتباعها ليتحقق مقصد الحياة الطيبة للمؤمنين في هذه الدنيا، ألا وهي: الإيمان والعمل الصالح. والحياة الطيبة هنا هي حال من الأمن والطمأنينة ورغد الرزق يعيشها الفرد في المجتمع المؤمن، ويتبارك كل شيء حتى بيئة الطبيعة، ويأمن الإنسان من الخوف على إيمانه ونفسه وماله وبنيه: (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾)(النحل)؛ (لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾)(سبأ)؛ (وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾)(الأعراف)؛ (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦)(المائدة).

هكذا رتب الله تعالي الحياة الطيبة على الإيمان والعمل الصالح، ورتب الحياة الضنكة على الكفر والعمل الطالح حتى وإن صاحبها زيادة في المال والبنين: (أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦)(المؤمنون)؛ (فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥)(التوبة).

إذا علم المقصد، وتحددت الوسائل، فإن المهم هنا هو التركيز على الوسائل، وتجويدها، لأن الذي بيده وحده إيقاع المسببات على أسبابها، ضمن لمن يأتي بالأسباب على وجهها الصحيح(الإيمان، العمل الصالح) حصول النتيجة الموعودة: الحياة الطيبة. فإذا علمنا أن التنمية، في جوهرها، هي عمليات يتوسل بها المجتمع إلى تحقيق الحياة الطيبة، جاز لنا التركيز على الإيمان والعمل الصالح، باعتبارهما لب العملية التنموية، في النموذج التوحيدي. وسوف يتبين لنا من التحليل اللاحق أنّ الإيمان والعمل الصالح ينطويان أيضاً على مقاصد ووسائل، لكن الالتفات إلى النتائج قد يكون مفيداً لأسباب تقويمية، فنحتاج إلى مؤشرات للحياة الطيبة بحيث نتحقق من مدى تجويدنا للأسباب. [1]

القيود(Constraints) التنموية بعضها تشريعي، هي حدود الله، فلا ينبغي تجاوزها بحال: (تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩)(البقرة)، بل الشريعة هي الموجّه والسياج الذي تسير في جنبتيه(الحلال، الحرام) التنمية. ثم هناك قيود طبيعية، هي سنن الله التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلا؛ فالموارد

(1) أنظر ترجيح الإمام الشاطبي عدم الالتفات إلى المسببات في الموافقات ، ج1 ، ص 193

الطبيعية مثلاً، بعضها، كالمعادن، يوجد في الأرض بكميات محددة، ولا يمكن زيادتها، والموارد المتجددة، كالغابات، تجدد نفسها بنسب معينة، فإذا تم استهلاكها بمعدلات أعلى من هذه النسب تناقصت، وهكذا. وأخيراً هناك كم هائل من قيود الأعراف، والتقاليد، والعادات، والقوانين، يضع البشر بعضا منها إصراراً على أنفسهم، بمحض أهوائهم: (وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦)(النحل)؛ (فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠)(القصص)، أو توضع عليهم من قبل طواغيت البشر: (قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩)(غافر).

إذا تحددت المقاصد(الحياة الطيبة)، والوسائل(الإيمان، العمل الصالح)، والمحددات (سنن تشريعية، سنن طبيعية، أعراف اجتماعية)، فإنّ الله تعالى قد كلّف كل مؤمن أن يبذل وسعه، إيماناً وعملاً صالحاً: (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ)(البقرة). وقد أطلقنا على هذا الوسع في بحثنا المستفيض عن التنمية المستدامة (الوسع التكليفي)، وهو حصيلة أنواع أخرى من الوسع.

استدامة الحياة الطيبة والتنمية المحققة والحافظة لها أمر مرغوب ومطلوب، وفي إطار النموذج التوحيدي فإنّ الذي ضمن تحقق الحياة الطيبة، لمن توسل إليها بالإيمان والعمل الصالح، شرط دوام هذه النعمة بمداومة المكلفين على شكرها، والصبر والتواصي على الثبات على ذلك: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ

يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾(الأنفال)؛ (وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾)(إبراهيم).

هكذا تتحدد العناصر التحليلية للنظرية التنموية في النموذج التوحيدي؛ مقاصد ووسائل وقيود ووسع تكليفي واستدامة مشروطة؛ ولم يبق إلا توظيف هذه الأدوات التحليلية في تبيان معالم تأسيس نظرية التنمية المستدامة على **خطة الخلق العامة**. وقد فعلنا ذلك في بحثنا عن التنمية المستدامة.

هناك علاقة تلازم بين الاستدامة والحفظ، فما لا يمكن حفظه لا يمكن استدامته، فالحفظ شرط ضروري للاستدامة ولكنه ليس بكافٍ، إذ هناك ما يمكن المحافظة عليه ولكن رغم ذلك لا يدوم لأمور خارجة عن الحفظ تتعلق بطبيعة ذلك الشيء. لكن الاستدامة شرط كافٍ للحفظ وليس بضروري، فحيث ما تحققت الاستدامة تحقق الحفظ.

المتغيرات التي من طبيعتها الزيادة أو النقصان، كماً أو كيفاً، يستحيل حفظها دون نموّها وتنميتها، بالقدر الذي يؤدي إلى الزيادة أو يمنع من النقصان. فإذا امتد ذلك عبر الزمان تحقق المعنى العلمي للاستدامة، إذ هي في حدها الأدنى تعني عند ذوي الاختصاص عدم التناقص عبر الزمان(Inter-temporarily Non-declining).

المتغيرات التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية وأصول المقاصد الشرعية من طبيعتها الزيادة والنقصان، كماً وكيفا، فالإيمان يزيد بالعمل الصالح وينقص بنقيضه؛ والنفس، كمّا، تزيد بالتوالد وتنقص بالموت، وتزيد، نوعا، في هداها وتقواها بالتزكية وتنقص بالدس؛ والعلم يزيد بالتقوى وبالبحث العلمي، وينقص بنقصانهما؛ والمال يزيد بالإنتاج وبالربح وبالصدقة؛ وينقص بالخسارة والربا والاستهلاك؛ والبنون يزيد وينقص بحسب اعتبار مكوناته، فعدد الأسر الشرعية يزيد بالزواج وينقص بالطلاق، والأبناء يزيدون بالتوالد وينقصون بالموت، والعلاقات الاجتماعية تقوى بالمودة والرحمة والمحبة

وبوصل كل ما أمر الله بهي أن يوصل، وتضعف بالشح والكبر والحسد وبتقطيع الأرحام...الخ.

يترتب على ما سبق أن المتغيرات التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية والمقاصد الشرعية يستحيل حفظها دون نموها وتنميتها. إذن مجتمع التوحيد(الدين) يستحيل حفظه علي الدوام دون تنمية مستدامة، وهي النتيجة المطلوبة.

7- أولويات المشروع الإسلامي في السودان

البناء النظري المضغوط في الصفحات السابقة ليس من شأنه أن يُستدعَى في كلياته للإجابة عن أسئلة الواقع بل الغرض منه الإسهام في بناء علوم اجتماعية يتم مقاربة قضايا الواقع من خلالها. ولكن لما أصبح الإسهام بالرأي في ما يستقبل السودان من أمور جسام واجب على كل سوداني فإن الانطلاق من رؤية قرآنية للاجتماع الإنساني أدعى لإصابة الحق في الرأي من غيرها من المنطلقات الفكرية.

نوظف الآن ما سبق من بناء نظري في تبين معالم أولويات المشروع الإسلامي في السودان فيما يستقبل من الأيام، معولين في ذلك، بعد عون الله تعالى وتوفيقه، على خبرتنا العملية بالواقع السوداني التي لا ندعي لها الإحاطة أو العمق، ولكن لابد مما ليس منه بد. قسمت الأولويات إلى قسمين؛ معرفية وعملية:

1.7- الأولويات المعرفية

1.1.7- حقيقة الدين الإسلامي

رغم ما يتبادر إلى ذهن المسلم من بداهة المقصود إلا أن **رؤية القرآن للعالم** والمنهج الذي اتبع في تحليلها وتوليد مضامينها تبين رؤية ومعاني وأبعاد للدين ربما يترتب عليها إعادة النظر في المقصود بالدين مما يطرحه العلماء والدعاة إلى الإسلام في هذا الزمان(القرن21)، وهذا المكان(السودان). إن الله تعالى يخبرنا أنه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقيم الناس الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان، وهذا هو _الكتاب والميزان_ الدين في معياريته المعرفية حيث هو شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل). وأما الدين من حيث هو حكم الناس حياتهم العملية بما أنزل الله من كتاب وميزان، وبما جعل من شرعة ومنهاج، فجوهره ابتلاء في العمل الإنساني الإرادي مجاله زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، حيث الاستخلاف والعمران، وحقيقته الشكر لله تعالى. ويقتضي ذلك علم وإيمان وعمل صالح تتزكى بها النفس وتصلح بها الأرض، وقد كانت السنة النبوية وما زالت هي البيان والمنهج العملي لكيف يمكن حكم واقع اجتماعي متغير، ومتحيز في الزمان والمكان، بتلك الشرعة بوساطة ذلك المنهاج. والدين العملي هذا هو مجتمع التوحيد بكل تجلياته في فضاء زينة الحياة الدنيا؛ بعلومه ونظمه وأعرافه وعاداته ومؤسساته وأعمال وتدافع أفراده، بشروط الزمان والمكان. هذا هو الدين المطلوب الحفظ على المستوى الكلي في مقاصد الشريعة الإسلامية، فما معنى الحفظ وكيف يكون ومن يقوم به؟ إن رؤية القرآن للعالم التي تقدم بسطها في متن البحث تبين لنا أن أصول شرعتنا لا تتبدل، فهي دائما وأبدا: الإيمان؛ النفس؛ العلم التوحيدي؛ المال؛ البنون؛

ومجتمع التوحيد(الدين) الذي يتولد من تفاعلها في الزمان والمكان. ولكن لأنها متغيرات في الزمكان فإن تجلياتها ومن ثم تجليات مجتمع التوحيد الذي ينشأ عنها لابد أن تختلف بحسب اختلاف الزمكان، وكذلك سوف تختلف التحديات التي تواجهها، والفرص المتاحة لها. ولما كانت الوسائل تحددها المقاصد فإن الاختلاف في تجليات تلك المقاصد والتحديات التي تواجهها بسبب اختلاف الزمكان يتبعه اختلاف الوسائل. فكيف إذن يتجلى الدين بمقاصده ووسائله وتحدياته وفرصه في هذا الزمان(القرن21) وهذا المكان(السودان)، على المستوى المعرفي؟

2.1.7- الشرعة قبل المنهاج

إذا كان الدين شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل) فليس هناك من عاقل، دعك من راشد، يقدّم الوسائل على المقاصد، لا من حيث المباحث العلمية ولا من حيث التطبيقات العملية، لأن ذلك من ضرب وضع العربة أمام الحصان. فالميزان، ونقصد به هنا الأحكام التكليفية العملية، ما تعلق منها بظاهر الأعمال وما تعلق بباطنها، والموزون، ونقصد به أعمال المكلفين، إن هي إلا وسائل(منهاج) لتحقيق مقاصد الدين(الشرعة)، بشروط الزمان والمكان، فإن لم تُعلم المقاصد بدقة فلا فائدة من الوسائل. لذلك ينبغي أن تأخذ مباحث المقاصد الأولوية القصوى في جميع مجالات العلم، ثم تأتي من بعد ذلك مباحث الوسائل المشروعة والمناسبة لتحقيق تلك المقاصد، بما في ذلك المباحث الفقهية، أما أن تصبح مباحث المقاصد هي مجرد وسيلة أصولية لاستنباط الأحكام الفقهية فتلك إذن قسمة ضيزى، لأنه يؤدي إلى قلب منطق الأشياء رأسا على عقب، فتصبح المقاصد وسائل والوسائل مقاصد.

3.1.7- **علوم الدين**

علوم الدين، كما يتضح من **رؤية القرآن للعالم**، هي تلك العلوم التي لابد منها لإقامة واستدامة مجتمع التوحيد(الدين). وقد تبين أنها علوم تبدأ بفلسفة العلم مرورا بالعلوم الصورية، ثم المعيارية من توحيد ومقاصد وفقه وتزكية وتنتهي بعلوم الطبيعة والمجتمع، في كل مترابط تربط بينها رؤية القرآن للعالم ونظامها المعرفي، ويميز بينها زاوية النظر العلمي إلى موضوع الدراسة. هذا يقتضي بالضرورة إعادة النظر في تصنيفنا للعلوم وأهميتها لمشروعنا الإسلامي الذي شعاره الرباني: "ولا تقف ما ليس لك به علم"؛ واستحضار الوعي بسوء الحال الذي يحيط بالوضع القائم في جامعاتنا ومراكز بحثنا العلمي من حيث نوع ومضامين المناهج الدراسية وأولويات ومخرجات البحث العلمي. والنتيجة التي توصلنا إليها في متن البحث في أن حفظ المقاصد الكلية للدين على الدوام يحتاج إلى تنمية مستدامة يدل على الحاجة الملحّة لتثوير فهمنا لديننا وأولوياته المعرفية والمنهجية، مستفيدين في ذلك من السقف المعرفي الذي يتيحه لنا التقدم الذي أحرزته البشرية في مجالات العلم المختلفة. كذلك لابد من إعطاء أولوية مطلقة لقضية التأصيل المعرفي وعدم تركها لمبادرات الأفراد، وحشد الطاقات العقلية والموارد المالية لها، لأنه لا سبيل إلى إحراز تقدم عملي في المشروع الإسلامي إلا بمقدار ما نحرزه من كسب في مجال العلم التوحيدي. نحن بكل الصدق في حاجة إلى ثورة معرفية توحيدية عارمة شعارها: "إن الظن لا يغني من الحق شيئا"، ودليلها: "ولا تقف ما ليس لك به علم"، وحجتها: "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". ثورة تثوّر القرآن على بصيرة، وتحرر خصائصه المعرفية(إطلاق؛ عالمية؛ شمول؛ هيمنة؛ تصديق؛ وحدة بنائية..إلخ) من هيمنة الفهم النسبي التاريخي للبشر، وتفجّر طاقاته العلمية وتعود به إلى المركزية في

إنتاج العلم على مستوى السقف المعرفي للبشرية اليوم. إن العقل الملتزم بالإسلام لا يمكنه أن يبدع خارج دائرة الوحي، ولكن إذا كان الوحي نفسه قد تمت الهيمنة عليه لصالح فهوم بشرية نسبية، بأي صورة من الصور وبأي درجة من الدرجات، فإن ذلك يعني بالضرورة توقف العقل المسلم عن الاجتهاد والإبداع المعرفي.

4.1.7- الجامعة الحاضنة

إذا سلمنا بما سبق من أولويات معرفية فإن الحاجة تمس إلى جامعة نموذجية تكون حاضنة لهذه الثورة المعرفية التوحيدية، بمراكزها البحثية وقاعاتها الدراسية؛ بحيث لا ينتمي إلى هيئة تدريسها وباحثيها إلا ثائر معرفي توحيدي له عطاء ثوري مشهود، ولا يلتحق بها طالبا إلا نجيب تُرجى ثمرته المعرفية من قريب. جامعة لا تقعد بها القيود والمحددات التي قعدت بغيرها من الجامعات السودانية.

5.1.7- التواصل المعرفي مع الغرب

النموذج الدنيوي، بحقيقته التي بينها القرآن، يشكل حضورا دائما، ويحدث تأثيرا، قد يكون قويا أو ضعيفا بحسب استجابة النفس لدواعيه بمقدار تمكّن أو ضعف الهوى فيها، في حياة الفرد والمجتمع المسلم. ولما كانت الحضارة الغربية، المؤسسة على النموذج الدنيوي هذا، قد أنتجت علوما كثيفة،، بعضها متقدم كما في الطبيعيات، وبعضها متعثر كما في الاجتماعيات، على المستوى النظري والتطبيقي، فإنّ من الحكمة الاستيعاب التام لهذه العلوم والاستفادة القصوى منها في دراسة الأثر السلبي والإيجابي الذي أحدثه ويمكن أن يحدثه هذا النموذج في حياتنا الفردية والجمعية، وأيضا الاستفادة منها في دراسة ومعرفة الآخر. لذلك يجب ابتعاث أبنائنا النابغين المتفوقين أكاديميا من خريجي

جامعاتنا، في المجالين الطبيعي والاجتماعي، المستعصمين بتوحيدهم، الثائرين على التخلف المعرفي لأمتهم، إلى أرقى جامعات الغرب للحصول على الشهادات العلمية العليا، على أن يكونوا مدركين للمهمة التأصيلية التي لها انتدبوا. هؤلاء هم الذين يرجى أن يقودوا الثورة المعرفية التوحيدية في جامعاتنا ومراكزنا البحثية بعد تأهيلهم وعودتهم إلى بلادهم، بعد تهيئة الظروف المناسبة لهم. ولكن إلى أن تنشأ جامعتنا النموذجية وتقوم بدورها يجب أن تجد قضية إسلام المعرفة طريقها إلى جامعاتنا القائمة، وأن يجد ما أنتج من علم متخصص في إطار القضية حظه في قاعات الدرس على مستوى البكلاريوس والدراسات العليا.

2.7- الأولويات العملية

1.2.7- الدين والواقع الاجتماعي

حقيقة الدين في الواقع، من حيث الزمان والمكان، إن هي إلا هذا التفاعل بين المتغيرات السبعة(الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون) المنتجة للظاهرة الإجتماعية، ومآلاته من حيث حفظ ميزان التفاعل على الصراط المستقيم، أو الانحراف به نحو سبل أخري. لذلك فإن حفظ الدين على الدوام كأولوية في مقاصد الشريعة إن هو إلا حفظ هذا التفاعل، على مستوى الفرد والمجتمع، ليكون على صراط الله المستقيم. وأما الميزان الذي أنزله الله تعالى ليحفظ به الناس هذا التفاعل على صراط الله المستقيم، على الدوام، فيتلخص في قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠)(النحل).

إن من المهم أن نعلم أن هذا التفاعل الاجتماعي هو التفاعل الأعظم خطرا والأجل أثرا على الأرض، لا يدانيه في ذلك أي تفاعل فيزيائي أو كيميائي أو حيوي، لأنه يمكن أن ينتج هو جميع هذه التفاعلات ولا ينتجه أي منها، ويمكنه أن يعمر الأرض بالصلاح، كما يمكنه أن يهلك الحرث والنسل. وقد أشار القرآن إلى عظيم خطره في عدد من الآيات منها: (وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ..﴿٤٥﴾)(فاطر)؛ (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ... ﴿٧١﴾)(المؤمنون)؛ (وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾)(الأعراف).

يترتب على ذلك أن يعطي المشروع الإسلامي في السودان أولوية قصوى لتحكيم ميزان الله أعلاه في هذا التفاعل الاجتماعي الخطير، كما يتجلّى في الزمان والمكان. لقد بينا إجمالا في متن البحث كيف يقيم الإسلام مطلقا هذا الميزان في حفظ مجتمع التوحيد ومتغيراته، أما في الواقع السوداني الحالي فلابد من دراسة علمية تطبيقية دقيقة ومستفيضة لتجليات هذا التفاعل ولمتغيراته، ومدى قربه أو بعده عن صراط الله المستقيم، تتكامل فيها جميع التخصصات العلمية المتاحة في إطار موجهات منهجية توحيدية للبحث تستلهم فقه الأولويات المقاصدي، ثم وضع الاستراتيجيات والخطط والسياسات المناسبة التي تنتقل بهذا التفاعل، تدرجا في الزمان والمكان، نحو توازنه الرشيد المستقر المستدام. إن الواقع الاجتماعي السوداني الذي يمور بالصراعات من كل نوع لأكثر من

نصف قرن يدل على أن هناك اختلالا مزمنا في الميزان الاجتماعي الذي أمرنا الله تعالى أن نقيمه بالقسط ولا نخسره.

لابد من طرح أسئلة من قبيل: كيف تقيم الدولة والمجتمع السوداني الوزن بالقسط في المجال المالي بحيث يتحقق ميزان الله تعالى(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...). وتشمل الإجابة هنا جميع القضايا المتعلقة بالموارد الطبيعية والبيئة الداعمة لها، من حيث الصلاح والفساد في الاستخدام؛ وتشمل الإجابة أيضا جميع القضايا التي يثيرها علم الاقتصاد فيما يتعلق بالإنتاج وتخصيص الموارد، وقضايا توزيع الدخل والثروة بين أفراد المجتمع والعدل والإحسان في ذلك، وقضايا الانفاق الاستهلاكي والاستثماري والخيري وإقامة الوزن بالقسط فيها، ليتحقق من جميع تلك الاجابات معنى الإنفاق في سبيل الله باعتباره حقيقة الشكر لله في مجال المال. ويتكرر نفس السؤال لنصل إلى نفس الإجابات في القضايا الحيوية في باقي المجالات الاستراتيجية: التربوي، المعرفي، الاجتماعي، السياسي...إلخ، مستخدمين نفس الميزان الإلهي: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠)(النحل).

2.2.7- تطبيق الشريعة أم إقامة الدين؟

أرى أن هناك ضرورة لمراجعة الخطاب بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، لأن أصحاب هذا الخطاب لا يقصدون، فيما يبدو من ظاهر أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم، من الشريعة إلا معناها الاصطلاحي، وهوتطبيق الأحكام التكليفية العملية. والشريعة بهذا

المعنى هي مجرد منهاج(وسيلة) لابد لها من هدف أو مقصد(شرعة)، وقد سبق أن قلنا إن المقاصد لابد أن تتقدم الوسائل، لا من حيث الترتيب فحسب بل من حيث الأهمية، فهي التي تحدد ما يناسبها من وسائل. وإذا كان الأمر كذلك فما معني التركيز على تطبيق الوسيلة مع إهمال تام لمقاصدها؟ ثم إن الأحكام التكليفية العملية هي زاوية واحدة من زوايا النظر إلى ذات الفعل أو العمل الذي هو الوسيلة الحقيقية لتحقيق مقاصد الدين في الواقع، ولكن ماذا عن زوايا النظر العلمية الأخرى لذات الفعل، والتي لا تقل أهمية عن النظرة الفقهية، حتى يأتي المكلف بالفعل الأرشد وبالطريقة الأفعل ذات الأثر الأكبر، لتتحقق مقاصد الدين في الواقع بطريقة مثلى؟ آن الأوان لرد الاعتبار لعلوم الدين الطبيعية والاجتماعية التي بدونها لا سبيل إلى تحويل الفعل الاجتماعي إلى عمران للأرض وتحقيق الشكر لله تعالى في زينة الحياة الدنيا وهو جوهر الدين.

هناك أيضا إشكال أن الشريعة بالمعنى الإصطلاحي هي نصوص مقدسة مطلقة يحتاج حكمها للواقع الاجتماعي، المتحيز في الزمان والمكان، إلى اجتهاد بشري نسبي، بشروط الزمان والمكان وفقه الأولويات، فمن يا ترى من الجماعات الإسلامية، التي تمايزت عن بعضها في نفس الأمر، يكون لفهمها الكلمة العليا؟

لكل ما سبق أرى أن الخطاب الأوْلى بنا هو الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله، وقد أنزل الله الكتاب والميزان، وجعل الشرعة والمنهاج، أو أن يكون الخطاب الدعوة إلى إقامة الدين في الحياة، وهذا هو معنى الشريعة حقيقة كما وردت في القرآن: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ

ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴿١٣﴾)(الشورى)؛ (ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾)(الجاثية). وقد تبين لنا مما سبق أن الدين في الرؤية

القرآنية للعالم، من حيث هو واقع عملي، مساوٍ لمجتمع التوحيد بكل ما يحتاجه من علوم ونظم اجتماعية ومؤسسات وأعراف وعلاقات دولية...إلخ. ولا شك أن إقامة الدين بهذا المعنى أوسع مدى من مجرد الدعوة إلى تطبيق الشريعة بمعناها الاصطلاحي، ويصبح تطبيق الشريعة بهذا المعنى شرط ضروري ولكنه ليس بكافٍ لإقامة الدين.

لابد من إعطاء الأولوية القصوى لمقاصد الدين الكلية كمقاصد للدولة وللمجتمع، وأن يتم تقييم أداء التجربة الإسلامية في السودان على أساس ما حققت من مقاصد الدين العليا في حياة الناس، لا على أساس ما تم تطبيقه من أحكام شرعية، فليس هناك من عاقل يقيّم أداءه في الحياة بمقدار ما وظّف من وسائل، ولكن بمقدار ما حقق من أهدافه بتوظيفه تلك الوسائل. إن التميّز في تحقيق الأهداف دليل على كفاءة الوسائل المستخدمة، ولكن العكس ليس بصحيح. ولكن إذا فشلنا في تحقيق أهدافنا فعندها سوف تكون مراجعة الوسائل المستخدمة واحدة من أهم الإجراءات التي يجب اتخاذها للوقوف على أسباب هذا الفشل. إن القانون(الشريعة) بطبيعته تضييق وضبط وتقييد بينما المقاصد إطلاق وتحفيز، فإذا وجد الضبط والتضييق والتقييد في غياب المقاصد الحافزة للعمل والمبررة للضبط والتضييق والتقييد سرعان ما يمل ويتبرّم الإنسان ويبدأ في التفلّت والتجاوز بحثا عن مقاصده الخاصة، التي غالبا ما تكون تعظيم متاع الحياة الدنيا، وهي مطية الهوى والشيطان.

لابد من الانتباه إلى قضية منطقية من حيث الشكل ولكنها من حيث الجوهر بالغة الخطورة في تطور المجتمع أو تخلفه، وكذلك في نجاح أو فشل تطبيق المشروع الإسلامي، وهي قضية الاتساق أو عدمه بين المقاصد الجوهرية وبين وسائل تحقيقها. الشريعة الإسلامية، بمعناها الاصطلاحي، وضعها الشارع وسيلة لتحقيق مقاصد الدين في حياة المسلمين، ولكن ذلك يقتضي أن تكون مقاصد المسلمين الجوهرية في حياتهم مطابقة لمقاصد الشارع، وعندها تكون الوسائل الضرورية التي يتوخاها الناس لتحقيق مقاصدهم الحياتية هي الشريعة الإسلامية. وهذا هو الوضع المثالي ليعطي الإسلام أفضل عائد من طبيقه، للأفراد والجماعة، وذلك لاتساق المقاصد ووسائل تطبيقها. ولكن عندما يختار الناس مقاصدهم الحياتية الجوهرية بعيدا عن مقاصد الدين فمن المنطقي أن يبحثوا عن وسائل تطبيقها بعيدا عن الشريعة لأنها ليست الوسيلة المتسقة مع مقاصدهم، ومن هنا ينشأ الإشكال الحقيقي حيث إن إلزام الناس بتطبيق الشريعة، بمعناها الإصطلاحي، في حياتهم الفردية والجمعية يكون غير ذي جدوى. وقد يلتزم الناس شكلا بالشريعة، ولكنه يكون التزام نفاق، وتكون الشريعة عبئا ثقيلا على الناس وعائقا لهم عن تحقيق مقاصدهم الدنيوية التي لابد لهم من تحقيقها لأنها مقاصد حياتهم الجوهرية. ويترتب على هذا الوضع الناجم عن عدم الاتساق بين مقاصد الناس الحياتية والوسيلة المتاحة لهم لتحقيقها، وهي الشريعة، عدة نتائج سالبة، منها فشل المجتمع في تحقيق أهدافه الدنيوية؛ ومنها فشل تطبيق أحكام الشريعة لتفلت الناس منها؛ ومنها خلق حالة من النفاق الاجتماعي؛ ومنها خلق أجواء من التوتر الاجتماعي، ومنها خلق موقف نفسي سالب من تجارب تطبيق الدين في الحياة جملة. والحل يكمن في أن يرتب المجتمع شأنه كله على أساس مقاصد الدين الجوهرية، بشروط الزمان والمكان، لا سيما في المجال

المعرفي والمجال التربوي، فتتأسس بذلك القاعدة الفكرية التي تربط بين عالم الناس وعالم الأشياء على أساس متين من مقاصد الدين. ولابد من تربية الناس، منذ طفولتهم الباكرة، على أساس مقاصد الدين الجوهرية حتى يشبوا عليها فيحددون مقاصدهم الحياتية طوعا وتلقائيا من خلال المقاصد التي يريدها لهم الشارع. أما أن يترك الناس على هواهم حتى يكبروا، وحتى تصبح الدنيا هي مقصدهم وهمهم، ثم تلزمهم جهة ما بأحكام الشريعة الإسلامية، التي هي مجرد وسائل دون مقاصد، فإن ذلك يندرج تحت إتيان البيوت من غير أبوابها.

3.2.7- **الجماعات والأحزاب الإسلامية: تعالوا إلى كلمة سواء**

إقامة الدين في الواقع تحتاج إلى علم(اجتهاد) وإيمان وعمل صالح في زينة الحياة الدنيا؛ فعلى أي أساس من هذه الأركان الثلاثة تمايزت الجماعات الإسلامية في السودان عن بعضها البعض بما أدى إلى إضعاف صف المسلمين وتعريض المشروع الإسلامي السوداني للفشل؟ وهل تم تحرير الخلاف بينها على أساس جدل علمي متجرد وظف فيه المنهج العلمي في حسم القضايا المثارة بحيث يُردّ الناس إلى الحق ردا جميلا؟

هناك حاجة ملحة إلى فرز الحق من الباطل فيما يدعو إلى التمايز بين الجماعات والأحزاب السودانية التي تستمد مشروعيتها من الالتزام بالإسلام، لأن الله تعالى أمرنا أن نقيم الدين ولا نتفرق فيه، لأن التفرق يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح، وأن نقيم الوزن بالقسط ولا نخسر الميزان. إذن لابد لهذه الجماعات والأحزاب المتباينة من أن تأتي إلى كلمة سواء يكون أساسها: إن الظن لا يغني من الحق شيئا.

4.2.7- التنمية المستدامة شرط لحفظ مقاصد الدين في الحياة على الدوام

لعل أهم النتائج التي كشف عنها البحث المنهجي في رؤية القرآن للاجتماع الإنساني هو أن أصول الاجتماع التوحيدي هي نفسها أصول مقاصد الشريعة الإسلامية، وأنها متغيرات متفاعلة في الزمكان، فالإيمان يزيد وينقص، وكذلك النفس والعلم والمال والبنون، وكذلك نظام المجتمع ككل. نتيجة أخرى للبحث لا تقل أهمية عن سابقتها هي أن العلاقة التي تربط بين الإيمان من جهة وبين النفس والعلم والمال والبنون من جهة أخرى هي علاقة دال ومدلول، أو ناتج ومدخلاته؛ أي أن الإيمان ثاوٍ في حياة الناس العادية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب وتربية وتعليم. وهذا معنى الأحاديث الشريفة أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ولآخرتك كأنك تموت غدا. وهاتان النتيجتان تكيّفان تماما فهمنا للارتباط الوثيق بين الدين والتنمية من جهة، ولمفهوم التنمية وأولوياتها من جهة أخرى، كما بينا ذلك باستفاضة في بحثنا عن التنمية المستدامة الذي أشرنا إليه في أول البحث. فقد تبين لنا أن إقامة الدين وحفظ مقاصده في الواقع الاجتماعي، على الدوام، يقتضي تنمية مستدامة تؤدي إلى **زيادة** في الأصول المقاصدية للدين(الإيمان؛ النفس؛ العلم؛ المال؛ البنون)، أو تحول بينها وبين **النقصان**.

إن من أولويات المشروع الإسلامي في السودان إعادة النظر في مفهوم التنمية في ضوء رؤية القرآن للعالم الاجتماعي ومقاصد هذه الرؤية؛ فهي تجعل الإنسان محور التنمية وتجعل جوهر هذه التنمية هو تنمية إيمان من آمن ودعوة من لم يؤمن إلى الإيمان. ولكن إيمان المؤمن لن يزيد إلا بزيادة العمل الصالح في مدخلاته المتمثلة في زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، بالمعنى الذي فصلناه لهذا المفهوم في متن البحث، لأن هذا هو

مجال الابتلاء الذي جعله الله قدر الإنسان في هذه الدنيا. ولكن زيادة العمل الصالح، كمّا ونوعا، في زينة الحياة الدنيا لن يأتي بها المؤمن على وجهها إلا إذا ازداد وسعه التكليفي، كما بينا ذلك باستفاضة في بحثنا عن التنمية المستدامة. ولكن الوسع التكليفي للمؤمن يزداد، كمّا ونوعا، بزيادة حظه من العلم التوحيدي والتدريب المهاري وبزيادة حظه أيضا من التربية على أخلاق التقوى. هكذا تصبح العملية التنموية حلقات متصلة من التزكية والتزكي في العمل تثمر شكرا يديم النعمة ويزيدها. هذا يقتضي أن تتمحور استراتيجيات وسياسات الدولة التنموية حول زيادة الوسع التكليفي للإنسان السوداني بما يمكّن من خلق شخصية المسلم الراشد الذي يصدق فيه قول الله تعالى: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧)(الحجرات)؛ (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقٗا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦)(النحل)؛ (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلٗاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩)(الزمر).

لقد أثبتت البحوث العلمية في مجال التنمية في الغرب أن الناس يصيرون أكثر قدرة لأسباب تتعلق بالنمو الروحي، والنفسي، والبدني. إنّ الناس الذين يحققون تنمية من هذا النوع تتسع قدراتهم، وتنمو في كافة مجالات الحياة، وليس فقط في مجال العمل، أو المجال الشخصي، وقد أطلقوا على هذا النوع من القدرات الشخصية (رأس المال الذاتي). إذن يمكن تشبيه دور رأس المال الذاتي، في رفع الكفاءة الشاملة للإنسان، بدور التقدم التقني(Technological Progress)، الذي ينقل الدالة الإنتاجية إلى موقع أعلى، مع ثبات عوامل الإنتاج، مما يعني الرفع الشامل لإنتاجية عوامل الإنتاج الموظفة.

إن الاستثمار في رأس المال الذاتي ينتج أناساً يتمتعون بمهارات اجتماعية أكبر، ودافعية أكثر، وشخصية متزنة، ومن ثم يصبحون أشخاصاً أفضل، في ذاتهم، وأفعالهم.

5.2.7- بث ثقافة رؤية القرآن للعالم في المجتمع

لابد من إعطاء أولوية قصوى لبث ثقافة رؤية العالم القرآنية في المجتمع السوداني بكل أبعادها العلمية والتربوية والحضارية والعمرانية، موظفين في ذلك كل وسائل التربية والاتصال والانتقال. تُرى لو أن علماء الدين عندنا بثوا في وعي الناس أن إقامة الحدائق ذات البهجة يمكن أن يكون بالنيّة عبادة لله الواحد، لأنها من أدلة التوحيد كما قال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾)(النمل)، هل كان حال وجداننا وبيوتنا وبيئتنا الحضرية على هذا النحو البائس النافر من الجمال، المفتقر إلى أدنى مقوماته؟

من الطرائف عميقة المغزى والدلالة على فجيعتنا في فهم ديننا أن أحد زملائي من الأساتذة، وهو يحمل درجة الأستاذية في علوم الزراعة، وينتمي إلى إحدى الجماعات الإسلامية المعروفة، وفوق ذلك هو إمام يصلي بالناس الجماعة والجمعة أحيانا، زارني ونفر كريم من الزملاء في منزلي الحكومي، وكانت وما زالت به حدائق ذات بهجة. وما أن رأى الحديقة حتى بادرني معلقا: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)؛ إشارة إلى الآية الكريمة: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾)(الأحقاف).

6.2.7- إعداد القوة المستطاعة ورباط الخيل

لقد تبين لنا في متن البحث أن نموذج الاجتماع الدنيوي يتأسس على فجور النفس وحب الدنيا، وأن نموذج الاجتماع التوحيدي يتأسس على تقوى النفس وحب الآخرة، فهما نقيضان إذن. لذلك كانت العلاقة بين المجتمعات التي يتمظهر فيها هذان النموذجان في التاريخ، عند الاقتران في الزمان والمكان، هي علاقات عدائية يبادر فيها المجتمع الدنيوي بالعدوان على أهل التوحيد ومجتمعهم بكل سبل القوة التي يملكها، لا يألو جهدا في ذلك، وقد أكد القرآن ذلك فقال: (وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴿٢١٧﴾)(البقرة). لذلك من أولويات المشروع الإسلامي في السودان، في هذا الزمان الذي تعددت فيه عناصر القوة مطلقا وعند العدو، هو إعداد القوة المستطاعة، على كافة مستوياتها، إبتداءً بالمسلم الراشد المتحقق بالعلم التوحيدي، القوي في إيمانه،

الحافظ والمحفوظ في نفسه وماله وبنيه، ثم المجتمع المتآلف بالإخوة في الله. فإذا تحقق المستطاع في هذا المستوى من القوة جاء المدد من الله بالأموال والبنين، عبر سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة، فيصبح أهل السودان أكثر نفيرا. ولا نظن أن ذلك سوف يتحقق ما لم نُقِم الوزن بالقسط في التفاعل الاجتماعي الذي ذكرناه في (1.2.7) أعلاه، لأنه سبيل السودان الوحيد للوفرة الاقتصادية والإلفة الاجتماعية، ومن ثم المنعة في المال والرجال. ثم يلي ذلك القوة المستطاعة في السلاح بأنواعه حتى يَرهبَنا عدونا فيسلم مشروعنا.

7.2.7- السودان نحو العالمية

القرآن خطاب للناس كافة إلى قيام الساعة، فأهل الإيمان لهم خطاب يناسب إيمانهم، وغيرهم لهم خطاب يناسبهم جوهره دعوتهم إلى اللحاق بركب الإيمان، لذلك فالدولة التي تقيم الدين حالها على الدوام بين أمرين: حفظ إيمان من آمن بتنمية مستدامة كما تقدم، ودعوة من لم يؤمن إلى اللحاق بركب الإيمان بخطاب يناسبه يلتزم شروط الزمان والمكان. وكما صارت التنمية المستدامة من أولويات المشروع الإسلامي في السودان بهذا الاعتبار الذي تقدم فكذلك الدعوة إلى الله على بصيرة يجب أن تكون من أولويات المشروع؛ سواء كان محل الخطاب من داخل السودان أو من خارجه. إن رؤية القرآن للعالم تبين لنا أن أفضل نموذج للدعوة إلى الله نقدمه لأهل هذا الزمان هو إقامة نموذج مجتمع توحيدي عمراني سنني تتجسد فيه رؤية العالم القرآنية، يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، يقيم الوزن بالقسط بين منجزات الحضارة البشرية المعاصرة ودواعي التوحيد التي تخلصها

من الفحشاء والمنكر والبغي من جهة، وتقيمها على قاعدة العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى من جهة أخرى.

إن فاقد الشيئ لا يعطيه أبدا، وما لم يتبين للآخرين قدرتنا على إصلاح حالنا بالإسلام، والقدرة على الإنجاز الحضاري على مستوى سقف الإنجاز البشري المعاصر فلن تشتري المجتمعات الأخرى بضاعتنا مهما بدا لنا صلاحها وعالميتها، وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نقول ما لا نفعل، أو أن نأمر الناس بالبر وننسى أنفسنا. نريد إقامة مجتمع توحيدي يبسط يده إلى مجتمعات المسلمين الأخرى بالأخوة فى الدين، وإلى مجتمعات غير المسلمين بالبر والقسط في إطار الإخاء الإنساني الأوسع، وبالانتصار إذا بُغي عليه، وقد وعده الله بالنصر، والله لا يخلف الميعاد.

تم بحمد الله